

أسرار

عظمة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ





وقف الاتقان لتعظيم القرآن والسنة، 1441 هـ

نشرة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحازمي، عصام ابراهيم محمد صالح

أسرار عظمة الإمام البخاري **رَحْمَةُ اللَّهِ** / عصام ابراهيم

محمد صالح الحازمي - المدينة المنورة، 1441 هـ

159 ص؛ 14 × 20 سم.

ردمك: 8-3047-03-603-978

1- البخاري، محمد بن اسماعيل، ت 256 هـ - الحديث

الصحيح 3- الحديث - تراجم الرواة أ. العنوان

1441 / 4689

ديوي 235.1

رقم الإيداع: 1441 / 4698

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م



المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة - حي البويرة - جوار جامع الأنصار

Tel: 00966142888838

MobiL: 00966556663617

Email: info@waqfaletqan.com

sunnahcen.com / nusrah

أسرار

عظمة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ

إعداد

إدريس بن إبراهيم الحجازي

وقف لاتقان لتعظيم القرآن والسنة
WAQF ALETQAN TO MAXIMIZE QURAN AND SUNNAH 1439 هـ





مقدمة

الحمد لله الذي ختم وَحْيَه بإنزاله على أشرف العبيد، وجعل سنته مطهرةً مقرونةً بالحجج الواضحة والتأييد، ونصب لها أقواماً أمانوا فيها نفوسهم فما لهم عن الحق من محيد، وأيقظهم لها فحموها من طرق الباطل فصارت محفوفةً بالقوة والتسديد^(١)، وصلى الله عليه وسلم على من رفع الله ذكره، وأظهر أمره، ولو كره الكافرون والمشركون والمجرمون.

وبعد،

لكل عظيم وعملٍ عظيمٍ أسرارٌ فيها مكامنٌ تميزه، ومنابعٌ تفوقه، التي نال بها أعلى مكانة، وبزَّ بها أقرانه، حتى غدا جوهرةً دُرٍّ في قلادة، في طارف الزمان وتلاده، ألا وإن أمير المؤمنين في الحديث أبا عبد الله البخاريَّ أحد العظماء الذين أشرقت شمسهم وما غربت، وغدت بأخباره الركبان وسرت، فما تلك الأسرار التي نال بها أمير المؤمنين تلك العظمة حتى سكن حُبُّه قلوبَ ذوي الإيمان؟ وما الأسرار التي نال بها صحيحه تلك

المنزلة حتى أصبح ذكره على كل لسان؟

(١) بداية القاري في ختم صحيح البخاري، الطبلاوي محمد بن سالم المصري الشافعي (ناصر الدين) [مخطوط ص: ١]، موقع مخطوطات الأزهر الشريف مصر.

إن في لفت الأنظار لتلك السيرة العطرة، وتفيؤ ظلها، هدايةً لأصحاب
الهمم العلية، والنفوس الطيبة الأبية، لبلوغ أعلى درجات الرضا عند رب
البرية، ببيان الأسرار المرعية لمن أراد الوصول إلى تلك المراتب العلية.
كما أن فيها تحذيراً لكل من تُسول له نفسه النيل من ثقة وضبط وعدالة
البخاريّ، وتوهين الأحاديث الواردة في صحيحه بالشبهات المضلة.
إضافة إلى أن فيها بياناً للأمة فضل ذلك الجيل الذي بذل الغالي والنفيس
في سبيل نشر أنوار السنة الضافية، وتفجير ينابيع حكّمها الصافية.



ترجمة الإمام البخاري

أولاً - اسمه ومولده ونشأته:

مثلاً تُولد الأقمار ليلاً وتبدأ في إضاءة الدجى يولد العلماء الذين تستنير بهم الحياة ويستترشد بوجودهم الأحياء، ومن هؤلاء العلماء الذين ملأوا الدنيا نوراً وهدى الإمام الحجة، شيخ الإسلام، قدوة الحفاظ: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، فمن هو البخاري الذي لا تمر لحظة حتى يذكر في جنبات الأرض اسمه وتتردد سيرته وتنهل عليه الحسنات والأجور من المسلمين وغير المسلمين حين يدخلون في دين الله أفواجاً نتيجةً لحديث حملة أو رسالة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حملها؟

على أرض مدينة بخارى - إحدى مدن أوزبكستان اليوم^(١)، وفي سنة أربع وتسعين ومائة من هجرة خير المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولد طفلٌ صغيرٌ في بيت علمٍ وفضلٍ وورعٍ، لأبوين فاضلين كريمين، فسماه «محمد»، كان

(١) هي مدينة قديمة واسعة رائعة، من بلدان ما وراء النهر، كانت قاعدة ملك السامانية، وكانت بأيدي الصغد والترك، وكان عليها ملكة اسمها خاتون لما فتحها المسلمون سنة ٥٣ هـ، وفي سنة ٨٧ هـ كان الأمر قد أفلت من يد المسلمين فهاجمها قتيبة بن مسلم الباهلي، وأعادها إلى حاضنة دار الإسلام، وهي اليوم من أعظم مدن جمهورية أوزبكستان، إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي. ينظر: موسوعة المدن العربية والإسلامية للدكتور يحيى الشامي (ص: ٤٠٩).

أبوه «إسماعيل» تاجرًا، وعالمًا، ويروي نقلة التاريخ الثقات أنه كان من من العلماء العاملين بعلمهم، المتقين لربهم، فقد اشتغل بعلم الحديث وأدرك ثلثة من أئمة علمائه، على رأسهم إمام دار الهجرة الإمام مالك^(١)، والإمام حماد بن زيد^(٢)، والإمام عبد الله بن المبارك^(٣)، رَحِمَهُمُ اللهُ.

وكان «إسماعيل» يتمتع بصفات عظيمة، ومناقب جليّة، من أهمها حرصه على طيب مطعمه، فكان لا يأكل إلا من حلال، ولا يدخل بيته إلا الحلال، وقد أفصح عن هذا السر العظيم عند موته، -وما كان ليظهره لولا حضور أجله- حيث قال لمن حضره من أهله: «لا أعلم في مالي درهمًا

(١) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الأنصاري إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، من مؤلفاته: «الموطأ»، و«تفسير غريب القرآن»، وجمع فقهه في «المدونة»، توفي سنة (١٧٩هـ). ينظر: الطبقات الكبرى ابن سعد (٥/ ٤٦٥)، الديباج المذهب لابن فرحون (١/ ٨٢).

(٢) هو حماد بن زيد بن درهم، أبو إسماعيل الأزدي البصري الجهضمي، كان ضريبًا، وكان يحفظ حديثه كله، وكان من أئمة الحديث ثقةً ثبتًا حجة كثير الحديث، توفي سنة (١٧٩هـ). ينظر: طبقات ابن سعد (٧/ ٢٨٦)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٥٦).

(٣) هو عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن، الحنظلي بالولاء، المروزي كان إمامًا فقيهاً ثقة مأمونًا حجة كثير الحديث، وكانت له تجارة واسعة من تصانيفه: «تفسير القرآن»، و«الدقائق في الرقائق»، و«رقاع الفتاوى»، توفي سنة (١٨١هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٧٨)، وشذرات الذهب (١/ ٢٩٥).

أسرار عظمة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ

من حرام ولا شبهة^(١)، وهذه الكلمات - على بساطتها - أحد أسرار إخراج تلك النسمة الطيبة الطاهرة، وهي ولده الذي صار بعد مدة من الزمان: الإمام البخاري، محدث الدنيا بحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحب أعظم كتاب ضم بين دفتيه شيئاً من سنته.

حقيق والله أن يكون لمثل هذا الوالد ابن هذا شأنه.

الله أكبر، إي والله إن طيبَ المطعم وسلامةَ المال من الحرام لصفةٌ عظيمةٌ لها أثر كبير في طهارة القلوب ولينها، وزكاة النفوس وطبيها، ولذا فقد دأب عليها عباد الله المخلصون من الأنبياء والمرسلين، ومن جاء بعدهم من الصالحين.

وإن شئت أن تعرف مكانة تلك الصفة الطيبة وتلك السمة العظيمة وأثرها فدونك فاعلم أنها هي الوصية التي وصَّى الله بها الأنبياء والمرسلين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

(١) الخبر رواه الذهبي في السير عن أحمد بن حَفْص، قال: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ -يَعْنِي: إِسْمَاعِيلَ- وَالدَّ أَيْ عَبْدَ اللَّهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَقَالَ: لَا أَعْلَمُ مِنْ مَالِي ذَرْهَمًا مِنْ حَرَامٍ، وَلَا ذَرْهَمًا مِنْ شُبْهَةٍ. قَالَ أَحْمَدُ: فَتَصَاغَرْتُ إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: أَصْدُقُ مَا يَكُونُ الرَّجُلُ عِنْدَ الْمَوْتِ»، سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٤٧).

[المؤمنون: ٥١]، ووصى بها عباده المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا

مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وكأني بهذه الآية وهي تبين أن صلاح الأعمال مربوط بطيب الطعام، ويؤكد ذلك مداومة رسول الله ﷺ على هذا الدعاء المبارك حين يسلم من صلاة الفجر قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْماً نَافِعاً، وَرِزْقاً طَيِّباً، وَعَمَلاً مُتَقَبَّلاً»^(١)، ففي ذلك إشارة إلى أن الخطوة الأولى للوصول إلى طلب العالم النافع والعمل المتقبل: الرزق الطيب.

وهكذا يشير ربنا لمن كان قبلنا من الصالحين الفارين بدينهم، والتاركين قومهم الفاسدين؛ أنهم كانوا يتحرون أعظم التحري في طعامهم، فقال سبحانه عن تلك الفئة المؤمنة: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ﴾ [الكهف: ٥١]. قال سعيد بن جبير: أي: أحلّ طعاماً^(٢).

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤٤/٩) برقم: (٩٨٥٠) وابن ماجه في «سننه» (٨٥ / ٢) برقم: (٩٢٥) وأحمد في «مسنده» (٦٤٠٠ / ١٢) برقم: (٢٧١٦٤) من حديث أم سلمة رَحِمَ اللَّهُ عَنْهَا، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٤١١ / ٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري، محمد بن جرير (٦٣٨ / ١٧) ط: مؤسسة الرسالة ١٤٢٠ هـ، ت: أحمد شاكر.

أسرار عظمة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ

وكان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشيد أيما بنبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنْ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^(١).

وكان يسأل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قبل أصحاب الهمم العالية العلية والنفوس الطيبة الزكية عن أطيب الكسب فيقول: «عَمَلُ الرَّجُلِ يَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ»^(٢).

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخاف أشد الخوف من أن يدخل جوفه ما فيه شبهة فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَائِلًا، فَوَجَدَ تَمْرَةً تَحْتَ جَنْبِهِ، فَأَخَذَهَا، فَأَكَلَهَا، ثُمَّ جَعَلَ يَتَصَوَّرُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ،

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب البيوع، بَابُ كَسْبِ الرَّجُلِ وَعَمَلِهِ بِيَدِهِ (٣ / ٥٧) برقم: (٢٠٧٢) من حديث المقدم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧ / ٣٨٤٤) برقم: (١٧٥٣٨) والطبراني في «الكبير» (٤ / ٢٧٦) برقم: (٤٤١١) والحاكم في «مستدرکه» (٢ / ١٠) برقم: (٢١٧٠) من حديث رافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجوده الدمياطي في المتجر الرابع (ص: ٣٠٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤ / ٦٣): «فيه المسعودي، وهو ثقة، ولكنه اختلط، وبقية رجاله رجال الصحيح».

وَفَزَعَ لَذَلِكَ بَعْضُ أَرْوَاجِهِ، فَقَالَ: «إِنِّي وَجَدْتُ تَمْرَةً تَحْتَ جَنْبِي فَأَكَلْتُهَا، فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ»^(١).

ولم يكن عظيم هذه الأمة وصديقها بمنأى، فقد روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الْخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكْهَنُ لِلنَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أَحْسِنُ الْكِهَانَةَ، إِلَّا أَتَيْ خَدْعَتُهُ، فَلَقَيْتَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتُ مِنْهُ. فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ»^(٢).

زاد أحمد في فضائل الصحابة: «فَذَهَبَ الْغُلَامُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَيْه، أَكْذَبْتَ أَبَا بَكْرٍ»، قَالَ: فَضَحِكَ -أَحْسَبُهُ قَالَ: ضَحِكًا شَدِيدًا- وَقَالَ: «وَيْحَكَ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ يَكْرَهُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنُهُ إِلَّا طَيِّبٌ»^(٣).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٠٧ / ٣) برقم: (٦٨٠٥)، وصححه الحاكم في «مستدركه» (١٤ / ٢) برقم: (٢١٨٤) وحسنه العراقي في تحرير أحاديث الإحياء (ص: ٥٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»؛ كتاب مناقب الأنصار، بَابُ أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ (٥ / ٤٣) برقم: (٣٨٤٢).

(٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١ / ٤٣٧) برقم: (٦٩٥).

وهكذا سار سلفُ الأمة على منهج الأنبياء والصحابة الكرام، فكانت أسئلتهم تدل على عظيم الاهتمام بهذا المنهج الأصيل، والركن الأكيد، فهذا أبو حفص ذهب إلى إمام الورعين في زمانه إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل فسأله هذا السؤال العظيم الذي نغفل عنه أجمعون، فقال: قلت لأبي عبد الله: رحمك الله، بم تلين القلوب؟ فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه فقال: يا بني، بأكل الحلال.

ثم ذهب بنفس السؤال إلى أبي نصر بشر بن الحارث فقال له: يا أبا نصر بم تلين القلوب؟ قال: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، قلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله. فقال: هيه، إيش قال لك أبو عبد الله؟ قلت: بأكل الحلال. فقال: جاء بالأصل.

وكذلك ذهب بنفس السؤال إلى عبد الوهاب بن أبي الحسن فقال له: يا أبا الحسن، بم تلين القلوب؟ قال: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. فقلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله. فاحمرت وجنتاه من الفرح، وقال لي: إيش قال أبو عبد الله؟ فقلت: قال: عليك بأكل الحلال.

فقال: جاءك بالجوهر، جاءك بالجوهر، الأصل كما قال، الأصل كما قال^(١).

وبهذا العرض الموجز لأهمية المال الحلال يتبين لنا عظيم أثره في صلاح الفرد المسلم، وصلاح ذريته من بعده، فالعظمة التي نالها الإمام البخاري لها جذر طيب، وأصل طاهر مطهر من الحرام وشبهاته، والنفس الطيبة الصالحة يخرج الله منها النفوس الطيبة يقول رب العزة: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ، وَيَادِّنُ رَبِّهٖ﴾ [الأعراف: ٥٨].

هذا أول أسباب عظمة البخاري فقد كانت نشأته، ورضاعه وطاقمه، ونبات جسمه من ذلك المال الحلال الذي تحرى والده فيه عظيم التحري وأعلاه حتى خلصه من كل شبهة فضلاً عن أن يكون حراماً وهو السبب في المجد الذي ناله والمكانة التي حصلها والمنصب الذي تبوأه في قلوب جميع المسلمين.

لا جرم بارك الله ذلك المال الطيب، فانتفع به البخاري أعظم الانتفاع وأفضله، حيث أنفقه كله في خدمة سنة خير المرسلين ﷺ، وكان أثر ذلك أن وضع الله له وكتبه القبول الذين لم يقع لكتاب إلا لكتابه سبحانه.

(١) مناقب الإمام أحمد، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ص: ٢٧٠)، ط: دار هجر، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ١٤٠٩ هـ

فإذا كنت تريد أن تكون عظيمًا أو يكون عملك عظيمًا فهناك أول خطوة في طريق العظماء، وأول سر من أسرارهم، فالزمه تفز، واحرص عليه تفلح، وفقنا الله وإياك لأحب الأعمال إليه.

نشأته في حجر أمه:

وكما كان والد البخاري في هذه المنزلة من العلم والورع والتقوى فقد كانت أمُّ الحسن وهي والدة البخاري بمكان من هذه المؤهلات، علَّمتها زوجها من بعد أهلها شريف الصفات وكريم السمات، وعوضه الله بها من بعد أبيه الذي توفي وهو صغير عوضًا عظيمًا، ولئن رأينا الوالد يغرس النبتة في أرض طيبة ويتركها ويرحل إلى الله تعالى فهذه الأم ستكمل الطريق في رعاية نبتتها وتنشئها وترعاها حتى تؤتي أكلها بإذن ربها، وهذا ما كان، لقد نشأ البخاري يتيمًا في حجر أمه الصالحة العابدة، التي تركت وطابت نفسها بأكل الحلال، فاهتمت بآبنها ورعته الرعاية التامة، واعتنت به العناية الكاملة، فحفظ القرآن من صغره، وتعلم أصول العلم عن الكتاب، ثم بدأ يلتحق بحلقات العلم، إلا أن الله ابتلاه بذهاب نور عينيه، فحزنت عليه أمه العابدة الصالحة المجتهدة حزنًا عظيمًا، فما كان منها وهي المؤمنة الموقنة بقدرة الله إلا أن رفعت شكواها إلى ربها ومولاها، وألحَّت في ذلك،

وحالها كحال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ حين رفع حزنه وبثه شكواه إلى مولاه فقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]. فما كان الله ليضيع لها ذلك الالتجاء، ولا ذلك البكاء، فقد نامت في ليلة من الليالي، فإذا برب العزة والجلال يريها في منامها خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال لها: يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك، وكثرة دعائك. فأصبحت وقد رد الله عليه بصره ^(١). وهذه القصة تشهد بعظمة باطنها وكبير سرها المدخر بينها وبين ربها، إذ دعت فأجابها، وكربت فتوجهت إليه ففك كربها، وكان رسوله سبحانه إليها خليل الرحمن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولئن دفعنا النور الذي لمسناه في سيرة والده إلى القول: حقيق أن يكون لمثل هذا الوالد ابن هذا شأنه، فإن هذه الكرامات تدفعنا إلى أن نكرر هذا القول بشأن والدته فنقول: حقيق أن يكون لمثل هذه الأم ابن هذا شأنه، وجديرة هي أن تكون أم البخاري ^(٢).

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر (ص: ٤٧٧)، وانظر: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩٣).

(٢) انظر: أمهات مؤمنات غيرن وجه العالم، ص: ٦٠، أحمد الجوهري عبد الجواد، دار المازري - تونس.

ومن هذه القصة النفيسة نبعث الأمل في قلب كل أم مكلومة ومفجوعة بولدها بأن لا تيأس من روح الله ورحمته، فألحي على الله، وأكثرى البكاء إلى رب الأرض والسماء، ففي لحظة قد تجددين ابنك نوراً من الأنوار ولا تنسي قول النبي ﷺ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ»^(١).

وما زالت هذه الأم تهتم بابنها اليافع، ويزداد اهتمامها وهي ترى فيه علامات النبوغ والصلاح، فحرصت على أن يحج مبكراً؛ لكي يتزكى قلبه، وينشرح صدره بهذه العبادة العظيمة، فخرجت به وعمره ست عشرة سنة، ومعه أخوه الأكبر، مع ما في الحج في ذلك الزمان من المشقة البالغة، من سفر طويل، يستمر شهوراً وفيه من المخاطر العظيمة التي كان يُعدُّ الذهاب فيها مفقوداً، والعائد منها مولوداً.

ولقد روى البخاري ذلك بنفسه فعن مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حَاتِمٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: كَيْفَ كَانَ بَدْءُ أَمْرِكَ؟

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٣ / ١٤) رقم (٨٥٨١)، وأبو داود في «سننه»؛ كتاب الصلاة، بَابُ الدُّعَاءِ بَطْنُ الْعَيْبِ (١ / ٥٦٣) برقم: (١٥٣٦)، والترمذي في «جامعه»، بَابُ مَا جَاءَ فِي دَعْوَةِ الْوَالِدَيْنِ (٣ / ٤٦٩) برقم: (١٩٠٥)، وابن ماجه في «سننه» (٣٠ / ٥) برقم: (٣٨٦٢) وقال الترمذي: حديث حسن.

قَالَ: أُلْهِمْتُ حِفْظَ الْحَدِيثِ وَأَنَا فِي الْكِتَابِ.

فَقُلْتُ: كَمْ كَانَ سِنُّكَ؟

فَقَالَ: عَشْرُ سِنِينَ، أَوْ أَقَلَّ، ثُمَّ خَرَجْتُ مِنَ الْكِتَابِ بَعْدَ الْعَشْرِ، فَجَعَلْتُ اخْتَلَفُ إِلَى الدَّاخِلِيِّ وَغَيْرِهِ، فَقَالَ يَوْمًا فِيمَا كَانَ يَقْرَأُ لِلنَّاسِ: سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ لَمْ يَرَوْ عَنْ إِبْرَاهِيمَ.

فَانْتَهَرَنِي، فَقُلْتُ لَهُ: ارْجِعْ إِلَى الْأَصْلِ فَدَخَلَ فَنظَرَ فِيهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ لِي: كَيْفَ هُوَ يَا غَلَامٌ؟

قُلْتُ: هُوَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَدِيِّ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، فَأَخَذَ الْقَلَمَ مِنِّي، وَأَحْكَمَ كِتَابَهُ، وَقَالَ: صَدَقْتَ.

فَقِيلَ لِلْبُخَارِيِّ: ابْنُ كَمْ كُنْتَ حِينَ رَدَدْتَ عَلَيْهِ؟

قَالَ: ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةِ سَنَةٍ، فَلَمَّا طَعَنْتُ فِي سِتِّ عَشْرَةِ سَنَةٍ، كُنْتُ قَدْ حَفِظْتُ كِتَابَ ابْنِ الْمُبَارَكِ وَوَكَيْعٍ، وَعَرَفْتُ كَلَامَ هُوْلَاءَ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَ أُمِّي وَأَخِي أَحْمَدَ إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا حَجَجْتُ رَجَعَ أَخِي بَهَا! وَتَخَلَّفْتُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ^(١).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٣٩٣).

هم كَأَن الشَّمْسَ تَخْطُبُ وَدَهَا وَالبدر يرسم في سناها أحرفا
أَيُّ: عظمة في هذه الأم التي أخرجت لنا مثل هذا الإمام المهام الذي
تعجز الأمهات أن يأتين بمثله، وصدق من قال: وراء كل عظيم امرأة
عظيمة.

ورسالة من محب إلى كل أم فاضلة طيبة صالحة مباركة تريد أن تخرج
للأمة أمثال الإمام البخاري أن تعلم علماً يقينياً أن أعظم وظيفة تؤديها المرأة
في حياتها هي الاهتمام بأولادها وتربيتهم تربية صالحة وصدق من قال:
الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا بالري أورك أيما إيقاق
الأم أستاذ الأساتذة الألى شغلت مآثرهم مدى الآفاق
وحين تكون الأم مثل هذه فلا تعجب أن يكون الطفل مثل البخاري.

ثانياً- مواقف وقصص عجيبة في نبوغه وإتقانه:

قَلَّ إنسان برز في علم من العلوم إلا كان لله فيه سرّاً، ومن الله له عطايا
ومنحاً، ولقد حبا الله الإمام البخاري وأكرمه منذ نعومة أظفاره بنبوغ
وبذاكرة فولاذية قَلَّ أن توجد في إنسان؛ لأجل حفظ سنة نبيه ﷺ،

ومن عجيب ما نقل من قصص حفظه التي تدل على ذكائه ونباهته، وأنه آية من آيات الله: ما رويناه أنفأ أنه كان ذات يوم وهو غلام صغير في حلقة شيخه الداخلي، وكانت حلقة يحضرها جمع من المحدثين، وبينما هم يتدارسون حديث رسول الله ﷺ قال الداخلي: حدثنا سفيان (يعني ابن عيينة)، عن أبي الزبير (يعني محمد بن مسلم بن تدرس)، عن إبراهيم (النخعي).

فإذا بالإمام البخاري الذي لم يتجاوز الحادية عشر من عمره يقول بقلبٍ ثابت ولسان منطلق لشيخه الداخلي وحوله المشايخ من المحدثين: شيخنا، إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم.

وهذا التنبيه من أدق أنواع التنبيهات في علم الحديث، وهو أن تعرف أن الشيخ الفلاني لا يروي عن فلان؛ لأنه لا يمكن الجزم بذلك إلا بعد استقراء كامل تام لشيوخ الراوي وتلاميذ المروي عنه، وهو من الصعوبة بمكان في ذلك الزمان.

فنظر الشيخ الداخلي هذا الذي يُصَوَّبُ له، فإذا هو غلام صغير، فانتهره، ولم يَدُرْ في خَلَدِهِ أن هذا الغلام يصوب مثل هذا الخطأ.

وظن الداخلي أن الغلام سيسكت؛ بل قديكي ويعتذر، ولكن المفاجأة العجيبة أن هذا الغلام لم يزد ذلك الانتهاز إلا صلابة وثباتاً على تصويبه فقال له: ارجع إلى الأصل.

فلما قال البخاري له ذلك عرف أن الأمر فيه ما فيه، «فَدَخَلَ فَنَظَرَ فِيهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ لِي: كَيْفَ هُوَ يَا غُلَامٌ؟

قُلْتُ: هُوَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَدِيٍّ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، فَأَخَذَ الْقَلَمَ مِنِّي، وَأَحْكَمَ كِتَابَهُ، وَقَالَ: صَدَقْتَ.

فَقِيلَ لِلْبُخَارِيِّ: ابْنُ كَمْ كُنْتَ حِينَ رَدَدْتَ عَلَيْهِ؟

قَالَ: ابْنُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً»^(١).

ومن عجائب القصص في إتقان أمير المؤمنين في الحديث أنه كان يفصل في النزاع بين المحدثين الكبار الذين يعتبرون من مشايخه وهو ابن ثمان عشرة سنة، وإليك هذه القصة العجيبة مع شيخ من أعظم شيوخه وهو عبد الله بن الزبير الحميدي، يقول البخاري: «وَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى الْفُقَهَاءِ

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩٣).

بَمَرَوْ وَأَنَا صَبِيٌّ، فَإِذَا جِئْتُ أَسْتَحِي أَنْ أَسْلَمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لِي مُؤَدَّبٌ مِنْ أَهْلِهَا: كَمْ كَتَبْتَ الْيَوْمَ؟

فَقُلْتُ: اثْنَيْنِ، وَأَرَدْتُ بِذَلِكَ حَدِيثَيْنِ، فَضَحِكَ مَنْ حَضَرَ الْمَجْلِسَ.

فَقَالَ شَيْخٌ مِنْهُمْ: لَا تَضْحَكُوا، فَلَعَلَّهُ يَضْحَكُ مِنْكُمْ يَوْمًا!!

وقال: دَخَلْتُ عَلَى الْحُمَيْدِيِّ ^(١)، وَأَنَا ابْنُ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ آخَرِ اخْتِلَافٍ فِي حَدِيثٍ، فَلَمَّا بَصُرَ بِي الْحُمَيْدِيُّ قَالَ: قَدْ جَاءَ مَنْ يَفْصِلُ بَيْنَنَا، فَعَرَضَا عَلَيَّ، فَقَضَيْتُ لِلْحُمَيْدِيِّ عَلَى مَنْ يُخَالِفُهُ، وَلَوْ أَنَّ مُخَالَفَهُ أَصَرَّ عَلَى خِلَافِهِ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى دَعْوَاهُ، لَمَاتَ كَافِرًا ^(٢).

وقال أبو جعفر: سَمِعْتُ أَبَا عُمَرَ سُلَيْمَ بْنَ مُجَاهِدٍ يَقُولُ: «كُنْتُ عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَامٍ الْبَيْكَنْدِيِّ، فَقَالَ: لَوْ جِئْتُ قَبْلَ لِرَأَيْتَ صَبِيًّا يَحْفَظُ سَبْعِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ».

(١) هو عبد الله بن الزبير بن عيسى بن أسامة، أبو بكر، الحميدي، الأُسدي، المكي، من المحدثين الحفاظ، روى عن ابن عيينة وإبراهيم بن سعد، ومحمد بن إدريس الشافعي وغيرهم، وروى عنه البخاري (٧٥) حديثاً، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي وغيرهم، وذكره ابن حبان في الثقات فقال: «صاحب سنة، وفضل ودين»، توفي سنة ٢١٩ هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٦١٦)، طبقات الشافعية الكبرى (٢/٤٠).

(٢) هدي الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر (ص: ٤٨٣)، وانظر: سير أعلام النبلاء (١٢/٤٠١).

قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى لَحِقْتُهُ.

قَالَ: أَنْتَ الَّذِي يَقُولُ: إِنِّي أَحْفَظُ سَبْعِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ؟

قَالَ: نَعَمْ، وَأَكْثَرُ، وَلَا أَجِئُكَ بِحَدِيثٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ إِلَّا عَرَفْتُكَ مَوْلِدَ أَكْثَرِهِمْ وَوَفَاتِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ، وَلَسْتُ أُرَوِّي حَدِيثًا مِنْ حَدِيثِ الصَّحَابَةِ أَوْ التَّابِعِينَ إِلَّا وَلِي مِنْ ذَلِكَ أَصْلٌ أَحْفَظُهُ حِفْظًا عَنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

بل بلغ من إتقانه ونبوغه وشدة حفظه أن مشايخه يهابون أن يتكلموا بحضرته، ويخافون أشد الخوف من الخطأ بين يديه، يقول أبو جعفر محمد بن أبي حاتم: سمعت بعض أصحابي يقول: «كُنْتُ عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَامٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ: كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيَّ هَذَا الصَّبِيُّ تَحَيَّرْتُ، وَأُلْبَسَ عَلَيَّ أَمْرُ الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ، وَلَا أَزَالُ خَائِفًا مَا لَمْ يَخْرُجْ»^(٢).

فيا ترى ما سبب خوفهم وخشيتهم؟

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤١٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤١٦: ٤١٧).

للجواب على هذا السؤال ينبغي التذكير بأنه كان من حرص المحدثين على سنة خير المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقيّموا ويختبروا كل من يتصدر لرواية الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسبروا حياته إلى وفاته، ويراجعوا مروياته، فإذا وجدوا المحدثَ يخطئ يحكمون عليه بعبارات في منتهى الدقة، تبين درجته من الحفظ والإتقان والضعف، ومن تلك العبارات: ضعيف، متروك، صدوق يهيم، له أوهامٌ، يُخطئ، يخطئ كثيراً، أو له مناكير، أو غير ذلك، وكل مصطلح من هذه المصطلحات فيه من الدقة والعدل والضبط والخوف من الله متناه، فكانوا يخافون أن يدخل عليهم من أمثال البخاري فيصدر حكمه فيهم.

ما للبخاريّ نظيرٌ في جلالته ومثله حافظ ما أمسك القلما
قد كان وهو صغيرُ السنّ مجتهداً وكان ذا هِمّةٍ قد فاقتِ الهمما
كأنّما صدره بحرٌ يموّجُ دكا كأنّما ذهنه غيثٌ قد انسجما^(١)

(١) تحفة السامع والقاري في ختم صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر الجعفري الحنبلي، وانظر الحطة في ذكر الصحاح الستة، لصديق حسن خان (ص: ٣١٨)، ط: دار الجيل، ت: علي حسن الحلبي.

ثالثًا - رحلاته:

من أعظم الخطوات التي يخطوها المسلم تلك الخطوات التي تكون في سبيل خدمة هذا الدين، ومن أعظم أبواب الدين خدمة سنة خير المرسلين **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، والمحدثون أكثر الناس حرصًا على الرحلة في طلبها وتبعتها، وقد سطر لنا التاريخ بمداد من ذهب عظيم بذلهم وتضحياتهم حتى إنك لتظن أنها ضربٌ من الخيال، فقد أنفقوا الأموال، وتركوا الأهل والأوطان، وتعرضوا لأعظم المخاطر والأهوال، ولم يكن ذلك يُشْنِئهم عن قصدهم، أو يُوهنهم عن هدفهم، بل كانوا يجدون بذلك أعظم السعادة.

ومن عجيب تضحياتهم أنهم كانوا يقطعون المفاوز والقفار من أجل حديث واحد، ومن ذلك: قصة جابر بن عبد الله **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** حيث يقول: «بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لَمْ أَسْمَعْهُ مِنْهُ، قَالَ: فَاشْتَرَيْتُ بَعِيرًا، فَشَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلِي، فَبَسَرْتُ إِلَيْهِ شَهْرًا حَتَّى أَتَيْتُ الشَّامَ، فَإِذَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ الْأَنْصَارِيُّ، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ أَنْ جَابِرًا عَلَى الْبَابِ، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَيَّ الرَّسُولُ، فَقَالَ: جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَأَتَاهُ فَأَخْبَرَهُ، فَقَامَ يَطُؤُ ثَوْبَهُ حَتَّى

خَرَجَ إِلَيَّ فَأَعْتَقَنِي وَاعْتَقَتُهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: حَدِيثٌ بَلَّغَنِي أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُظْلَمِ، لَمْ أَسْمَعْهُ، فَخَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ أَوْ تَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعْهُ»^(١).

لا تعرضن بذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد
وقد سطر لنا الخطيبُ البغداديُّ قصصَ أولئك الأئمة الأفاضل من
المحدثين الذين سافروا وقطعوا مئات الأميال من أجل حديث واحد فقط،
في كتاب مائع سماه (الرحلة في طلب الحديث الواحد).

(١) سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ - أَوْ قَالَ: يَحْشُرُ اللَّهُ النَّاسَ - قَالَ: وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الشَّامِ - عُرَاةَ غُرْلًا بَهُمَا، قُلْتُ: مَا بِهِمَا؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، قَالَ: فَيَنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدِّيَانُ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَظْلُبُهُ بِمُظْلَمَةٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَدْخُلَ النَّارَ وَاحِدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَظْلُبُهُ بِمُظْلَمَةٍ، حَتَّى اللَّظْمَةُ، قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ هُوَ وَأَنَا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عُرَاةَ غُرْلًا بَهُمَا؟ قَالَ: بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ». أخرجه أحمد في «مسنده» (٦ / ٣٤٧٠) برقم: (١٦٢٨٨) والطبراني في «الكبير» (١٤ / ٢٧٥) برقم: (١٤٩١٤) والحاكم في «مستدركه» (٢ / ٤٣٧) برقم: (٣٦٥٩)، وقال: «صحيح الإسناد»، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٣٥١).

ألا وإن من أبرز أولئك الرجال الأفاضل أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله البخاري، فقد اشتملت رحلاته على أسرار العظمة من جوانب متعددة، ومن ذلك:

السُّرُّ الأول - الرحلة إلى أكثر بلاد الإسلام:

علا صيت محمد بن إسماعيل وذاعت شهرته في الحلقات والدروس وعرفه الشيوخ والمدرسون، ولم يبق شيخ ولا مدرس في البلد إلا وأخذ «محمد» كل ما عنده من علم بالصبر والمصابرة والجد والمذاكرة.. وكذا فعل مع شيوخ البلاد المجاورة وكبار مدرسيها في المدارس والمجامع المرموقة والجوامع العتيقة واستطاع وهو ابن اثنتي عشرة سنة فقط أن يؤلّف كتاباً عن «قضايا الصحابة والتابعين»، وعرضه على شيوخه فاستحسنوه وأشادوا به. وكان مدرسه وشيوخه ممن عرفوا بالدقة والضبط والإتقان والرسوخ في العلم، بل إن كثيراً من أئمة علم الحديث في هذه البلاد كانوا يهابون حضور «محمد» في دروسهم ويترددون في الرواية خوفاً من أن يقع منهم خطأ أو وهم أثناء حضوره مجالسهم، وكانوا يعرضون عليه كتبهم للتصحيح.

حدث مرة أن كان في أحد المجالس عند بعض شيوخه فأخرج الشيخ كتابه وطلب إلى محمد أن ينظر فيه ويبين له ما فيها من خطأ وأن يصوبه، وكان بعض أصحاب الشيخ عنده حاضراً فلما سمع ذلك قال له: من هذا الفتى حتى تقول له هذا وأنت من أئمة العلم في هذا العصر؟ فقال الشيخ لصاحبه: هذا الذي ليس له مثله.

وكان محمد خلال ذلك قد ناهز السادسة عشرة من العمر فجمع خلالها قدراً كبيراً جداً من الأحاديث.. ليس هذا فحسب، لقد أغرم «محمد» بحفظ الأحاديث وما زالت هذه الرغبة تنمو وتزداد فيه، وأيضاً كان حريصاً على تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها، ومعرفة علل الحديث والاطلاع على أحوال الرواة ومعرفة عدالتهم وضبطهم وأمانتهم وصدقهم ومعشيتهم ومسكنهم ومولدهم ووفياتهم ولقائهم فيما بينهم، ومقارنة الأسانيد بعضها ببعض، ومعرفة اتصاها وانقطاعها، واستنباط المسائل الفقهية وغيرها من الأحاديث ومقارنتها بالآيات القرآنية، لقد كان مغرمًا بهذا كله، ولا يمر عليه ليل أو ينقضي نهار إلا وهو يتوسع في ذلك أشد التوسع، وكانت هذه الأفكار تتسع وترسخ في نفسه وتتقوى في قلبه.. ثم إن «محمدًا» لم يكتف

بعلوم الحديث فقط، بل طلب الفقه كما طلب الحديث، وأصبح على علمٍ كاملٍ بأقوال الفقهاء ومسائلهم الاجتهادية.

كل هذا ومحمد لم يخرج من بلادهم القريبة، ولم يرحل إلى غيرها من البلاد البعيدة، ثم اشتاقت نفسه إلى مزيد من العلم ففكر في السفر إلى عواصم الإسلام الكبرى مكة والمدينة وبغداد وغيرها، ليحصل مزيداً من العلم بحديث رسول الله ﷺ، وهذا ما كان، وهو سر من أسرار عظمته^(١).

نعم، إنَّ من أسرار عظمة البخاري في رحلاته أنه طاف أكثر بلاد الإسلام في ذلك الزمان وفي سن مبكرة، في حين أن كثيراً من المحدثين لم تيسر له مثل تلك الرحلات؛ ولعل ذلك بسبب ما توفر له من المال من والده، وهيمته العالية وحرصه الكبير على طلب الحديث وعلو أسانيده، وقد تَقَلَّ الإمام البخاري في خراسان قبل أن يسافر خارج بلده؛ ولكن لم تسفعنا المصادر بعدد رحلاته، إلا أنه كان من عادتهم أن لا يبدأ المحدث

(١) انظر: قدوتي، فصل: شمس الأئمة محمد بن إسماعيل البخاري، أحمد الجوهري عبد الجواد، دار أصول للنشر والتوزيع.

أسرار عظمة الإمام البخاري رَحْمَةُ اللَّهِ

رحلته حتى يأخذ عن أهل بلده ومن حوله، وكانت أولى رحلاته الخارجية عن بلاده كما هي موضحة في الجدول ^(١):

المدينة	المسافة بالكيلو متر	الزمن
بخاري - بلخ	٦٠٠	١٢ يوما
بلخ - مرو	٨٠٠	١٦ يوما
مرو - نيسابور	١٤٠	٣ أيام
نيسابور - الري	٧٦٠	١٥ يوما
الري - واسط	٩٨٥	٣٠ يوما
واسط - البصرة	٣٦٥	٧ أيام
البصرة - الكوفة	٣٩٠	٨ أيام
الكوفة - بغداد	١٦٤	٤ أيام
بغداد - المدينة النبوية	١٥٣٠	٤٥ يوما
المدينة - مكة	٤٣٥	٨ أيام
مكة - جدة	٧٠	١ أيام
جدة - عيذاب	١٢٠	٣ أيام
عيذاب - الفسطاط	١٠٨٠	٣٠ يوما
الفسطاط - عسقلان	٥٠٠	١٥ يوما
عسقلان - قيسرية	١١٨	٣ أيام
قيسرية - دمشق	٤٠٠	٨ أيام

(١) انظر: خريطة سامي المغلوث في كتابه أطلس الفرق والمذاهب في التاريخ الإسلامي

وهذه بعض الرحلات، وإلا فإنه قد رحل للبصرة خمس مرات، ورحل كذلك إلى بغداد، ودخلها أكثر من ثمان مرات، ومن ثمَّ رحل إلى الجزيرة. وهي الواقعة بين نهري دجلة والفرات وأهم مدنها حران^(١)، والرها^(٢)، والرقّة^(٣)، وأخذ عن محدثيها، ثم رجع بعد هذا التطواف بين بلاد الإسلام إلى خراسان، وبدأ يتنقل من مدينة إلى مدينة، وينشر حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهكذا كان المحدثون يطوفون الدنيا، ويمكثون عشرات السنوات، ثم يرجعون إلى أهليهم ومدنهم، ومن عجائب قصص الرحالين في طلب سنة خير المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محدث الإسلام الحافظ ابن منده حيث رحل

(١) حران: هي مدينة عظيمة مشهورة، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرقة ١٠٠ كم، وتقع اليوم جنوب تركيا في حدودها مع سورية. ينظر: معجم البلدان للحموي ٢/ ٢٣٥، رابط إلكتروني:

AA%D%D%/_٨٦/%٨A%D%D%A٣%.com //D٨.https://mawdoo٣.٨%D%D%A٧%D%D%B١%AD%D%D%D%/_B٩%D%D%٨٢/%٩

(٢) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، متصلة بحران. ينظر: معجم البلدان للحموي ١٠٦/٣.

(٣) الرقة: من المدن المشهورة، في شرق الشام، على الجانب الشرقي من نهر الفرات، وهي إحدى محافظات الجمهورية العربية السورية وهي معروفة بهذا الاسم إلى وقتنا الحالي. يُنظر: معجم البلدان، لأبي ياقوت الحموي، (٣/ ٥٩). وأطلس العالم، الجمهورية العربية السورية، ص: (٣٩).

في طلب العلم وعمره عشرون سنة، ورجع وعمره خمس وستون سنة، وكانت رحلته خمساً وأربعين سنة.

قال الذهبي: «وَلَمْ أَعْلَمْ أَحَدًا كَانَ أَوْسَعَ رِحْلَةً مِنْهُ، وَلَا أَكْثَرَ حَدِيثًا مِنْهُ مَعَ الْحِفْظِ وَالثَّقَةِ، فَبَلَّغْنَا أَنَّ عِدَّةَ شُيُوخِهِ أَلْفٌ وَسَبْعُ مِائَةٍ شَيْخٍ^(١).

وكذلك يعقوب بن سفيان، فقد قال قَالَ الْحَافِظُ أَبُو إِسْحَاقَ بْنُ حَمَزَةَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: «كُنْتُ رَحَلْتُ إِلَى يَعْقُوبَ بْنِ سُفْيَانَ، فَبَقِيتُ عِنْدَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فَقُلْتُ لَهُ: طَالَ مُقَامِي عِنْدَكَ، وَلي وَالِدَةٌ.

فَقَالَ: رَدَدْتُ الْبَابَ عَلَى وَالِدَتِي ثَلَاثِينَ سَنَةً»^(٢).

أي: أنه رَحِمَهُ اللهُ أقام في الرحلة لطلب الحديث ثلاثين سنة.

السُّرُّ الثاني - تَكَرُّرَ رِحَالَتِهِ لِلْمَدِينَةِ الْوَاحِدَةِ:

ومما تميز به البخاري أنه لا يكتفي بزيارة المدينة مرة واحدة؛ بل إنه يزورها عدة مرات كما فعل في بغداد، فقد رحل إليها ثمان مرات، وكذلك البصرة فقد رحل إليها أربع مرات، والمدينة ومكة وغيرها من بلدان الإسلام،

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٨١).

وذلك لجملة من الاعتبارات، منها التأكد من ثقة الرواة، ثم الأخذ عن شيوخ آخرين لم يدركهم في الرحلة الأولى.

روى عنه ذلك عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبُخَارِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ يَقُولُ: «لَقِيتُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ أَهْلِ الْحِجَازِ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ، لَقِيتُهُمْ كَرَّاتٍ، أَهْلِ الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْجَزِيرَةَ مَرَّتَيْنِ، وَأَهْلِ الْبَصْرَةِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَبِالْحِجَازِ سِتَّةَ أَعْوَامٍ، وَلَا أَحْصِي كَمْ دَخَلْتُ الْكُوفَةَ وَبَغْدَادَ مَعَ مُحَدَّثِي خُرَاسَانَ، مِنْهُمْ: الْمَكِّيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، وَيَحْيَى بْنُ يَحْيَى، وَابْنُ شَقِيقٍ، وَقُتَيْبَةُ، وَشَهَابُ بْنُ مَعْمَرٍ، وَبِالشَّامِ: الْفَرِيَابِيُّ، وَأَبُو مُسْهَرٍ، وَأَبُو الْمَغِيرَةِ، وَأَبُو الْيَمَانِ، وَسَمَّى خَلْقًا.

ثُمَّ قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ يَخْتَلِفُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَنَّ الدِّينَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ»^(١).



(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٠٧ : ٤٠٨).

صفات أهل الحديث وأحوالهم

وإليك وصف أهل الحديث من خبير بهم؛ حتى تعلم من هم نقلة
حديث رسول الله ﷺ، يقول منصور بن عمار: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُنْعِمِ
الْمَنَّانِ، مُظْهِرِ الْإِسْلَامَ عَلَى كُلِّ الْأَدْيَانِ....، وَوَكَّلَ بِالْأَثَارِ الْمَفْسَّرَةِ لِلْقُرْآنِ
وَالشُّنَنِ الْقَوِيَّةِ الْأَرْكَانِ، عَصَابَةَ مُتَخَبَّةٍ، وَفَقْهَهُمْ لِطَلَابِهَا وَكِتَابِهَا، وَقَوَاهُمْ
عَلَى رِعَايَتِهَا وَحِرَاسَتِهَا، وَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ قِرَاءَتَهَا وَدِرَاسَتَهَا، وَهَوَّنَ عَلَيْهِمْ
الدَّأْبَ وَالْكَالَ، وَالْحِلَّ وَالتَّرْحَالَ، وَبَذَلَ النَّفْسَ مَعَ الْأَمْوَالِ، وَرَكُوبَ
الْمُخُوفِ مِنَ الْأَهْوَالِ، فَهُمْ يَرْحَلُونَ مِنْ بِلَادٍ إِلَى بِلَادٍ، خَائِضِينَ فِي الْعِلْمِ
كُلَّ وَادٍ، شُعْتَ الرُّءُوسِ، خُلُقَانِ الثِّيَابِ، مُحْصَصِ الْبُطُونِ، ذُبُلِ الشِّفَاهِ،
شُحْبِ الْأَلْوَانِ، نُحْلَ الْأَبْدَانِ، قَدْ جَعَلُوا هَمًّا وَاحِدًا، وَرَضُوا بِالْعِلْمِ
دَلِيلًا وَرَأْسًا لَا يَقْطَعُهُمْ عَنْهُ جُوعٌ وَلَا ظَمَأٌ، وَلَا يَمْلَهُمْ مِنْهُ صَيْفٌ وَلَا
شِتَاءٌ، مَا تَزِينِ الْأَثَرُ: صَحِيحَهُ مِنْ سَقِيمِهِ، وَقَوِيَّةً مِنْ ضَعِيفِهِ، بِالْبَابِ
حَازِمَةً، وَآرَاءٍ ثَابِتَةً، وَقُلُوبٍ لِلْحَقِّ وَاعِيَةً، فَأَمِنَتْ تَمْوِيهِ الْمُموِّهِينَ، وَاخْتَرَعَ
الْمُلْحِدِينَ، وَافْتَرَاءَ الْكَاذِبِينَ، فَلَوْ رَأَيْتَهُمْ فِي لَيْلِهِمْ، وَقَدْ انْتَصَبُوا لِنَسْخِ مَا
سَمِعُوا، وَتَصَحَّيْحِ مَا جَمَعُوا، هَاجِرِينَ الْفُرْشَ الْوُطِيَّ، وَالْمُضْجَعَ الشَّهْيَ،

قَدْ غَشِيَهُمُ النَّعَاسُ فَأَنَامَهُمْ، وَتَسَاقَطَتْ مِنْ أَكْفِهِمْ أَقْلَامُهُمْ، فَانْتَبَهُوا
مَذْعُورِينَ قَدْ أَوْجَعَ الْكَدُّ أَصْلَابَهُمْ، وَتَبَّ السَّهَرِ الْبَائِسُ... لَعَلِمَتْ أَنَّهُمْ
حَرَسُ الْإِسْلَامِ وَخَزَانُ الْمُلِكِ الْعَلَامِ، فَإِذَا قَضَوْا مِنْ بَعْضِ مَا رَامُوا
أَوْ طَارَهُمْ، انْصَرَفُوا قَاصِدِينَ دِيَارَهُمْ، فَلَزِمُوا الْمَسَاجِدَ، وَعَمَّرُوا الْمَشَاهِدَ،
لَا بِسِينَ ثَوْبِ الْخُضُوعِ، مُسَالِمِينَ وَمُسْلِمِينَ، يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا،
لَا يُؤْذُونَ جَارًا، وَلَا يُقَارِفُونَ عَارًا، حَتَّى إِذَا زَاغَ زَائِعٌ، أَوْ مَرَقَ فِي الدِّينِ
مَارِقٌ، خَرَجُوا خُرُوجَ الْأَسَدِ مِنَ الْأَجَامِ، يُنَاضِلُونَ عَنْ مَعَالِمِ الْإِسْلَامِ^(١).
هَلِ الدِّينُ إِلَّا مَا رَوَتْهُ أَكَابِرُ

لَنَا نَقْلُوا الْأَخْبَارَ عَنْ طَيِّبِ خُبْرَا

وَأَدَّوْا أَحَادِيثَ الرَّسُولِ مَصُونَةً عَنِ الرَّيْفِ

وَالْتَّصَحِّيفِ فَاسْتَوْجِبُوا الشُّكْرَا

وَإِنَّ الْبُخَارِيَّ الْإِمَامَ لَجَامِعٌ

بِجَامِعِهِ مِنْهَا الْيَوَاقِيتُ وَالذَّرَا

عَلَى مَفْرِقِ الْإِسْلَامِ تَاجٌ مُرَصَّعٌ

أَضَاءَ بِهِ شَمْسًا وَنَارَ بِهِ بَدْرًا

(١) المحدث الفاضل بين الراوي والواعي، للرامهرمزي (ص: ٢٢٠).

تَصَانِيفُهُ نَوْرٌ وَنَوْرٌ لِنَاضِرٍ
فَقَدْ أَشْرَقَتْ زُهْرًا وَقَدْ أُيْنَعَتْ زَهْرًا

وَكَمْ بَذَلَ النَّفْسَ الْمَصُونَةَ جَاهِدًا
فَجَازَ لَهَا بِحَرًّا وَجَابَ لَهَا بَرًا

فَطَوْرًا عِرَاقِيًّا وَطَوْرًا يَمَانِيًّا
وَطَوْرًا حِجَازِيًّا وَطَوْرًا أَقَى مِصْرًا

إِلَى أَنْ حَوَى مِنْهَا الصَّحِيحَ صَحِيفَةً
فَوَافِي كِتَابًا قَدْ غَدَا الْآيَةَ الْكُبْرَى

اللهم اجز الإمام البخاري وجميع علماء الإسلام خير الجزاء، واخزِ
المنافقين والطاعنين في أئمة الإسلام والدين، واجعلنا جميعًا من أنصار سنة
خير المرسلين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، آمين.

رابعًا- شيوخه وتلامذته وأسرار ذلك:

من أسرار عظمة العظماء أخذهم عن العظماء وأخذ العظماء عنهم،
والواقع أكبر شاهد على ذلك؛ فالذين يتخرجون من الجامعات العالمية

العريقة لهم شأنٌ مرموق، ومكانةٌ سامية، ومناصبٌ عالية؛ لما يتلقونه من معارفٍ دقيقةٍ من ذوي خبرات طويلة وبوسائل متعددة.

وقد حَرَصَ أميرُ المؤمنين في الحديث على الأخذ عن أعظم عظماء هذا الفن، حتى بلغ مشايخه الذين أخذ عنهم ألفاً وثمانين محدثاً، وبعبارة تقريبية: أخذ عن ألف وثمانين بروفسور، وكل بروفسور يشهد له بأنه إمام من أئمة الدنيا، فماذا ستكون عظمته؟ وماذا ستكون منزلته؟:

أما شيوخُ الإمام البخاري:

فأولهم ورأسهم إمام أهل السنة والجماعة: أحمدُ بن حنبل^(١) صاحبُ المسند الذي قال عنه: «ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل»^(٢).

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله حافظ الدنيا، وإمام المحدثين، وإمام المذهب الحنبلي، قال الذهبي: «هو الإمام حقاً، وشيخ الإسلام صدقاً»، امتحن في أيام المأمون والمعتصم ليقول بخلق القرآن فأبى وأظهر الله على يديه مذهب أهل السنة، من تصانيفه: «المسند»، و«المسائل»، وغيرها، توفي سنة ٢٤١ هـ. ينظر: طبقات الحنابلة لأبي يعلى ص: ٣، سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٧).

(٢) الجامع لعلوم الإمام أحمد (١٨/ ٥٤٩).

وإمام الأئمة في العلل: علي بن المديني ^(١)، قال البخاري: «مَا اسْتَصَغَرْتُ نَفْسِي عِنْدَ أَحَدٍ، إِلَّا عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ» ^(٢).

وإمام الدنيا إسحاق بن راهويه ^(٣) صاحب المسند.

ومن عظمته في أخذه عن مشايخه حتى بلغت به هذه المنزلة جملة من الأسرار وهي:

السِّرُّ الأول - الاستقصاء في أخذ حديث المحدث:

سُئِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّمَرَقَنْدِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَ: «مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَعْلَمُنَا وَأَفْقَهُنَا وَأَغْوَصُنَا، وَأَكْثَرُنَا طَلَبًا».

(١) هو علي بن عبد الله بن جعفر السعدي، أبو الحسن، ابن المديني، شيخ إمام حجة، كان من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ، وإليه انتهى في معرفة علل الحديث، مع كمال المعرفة بنقد الرجال، وسعة الحفظ، والتبحر في هذا الشأن، من تصانيفه: «المسند في الحديث»، و«تفسير غريب الحديث»، توفي سنة (٢٣٤هـ). ينظر: طبقات الشافعية لابن السبكي ١ / ٢٦٦، سير أعلام النبلاء ١١ / ٤٢.

(٢) (٤٦/١١).

(٣) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد من بني حنظلة من تميم عالم خراسان في عصره، اجتمع له الفقه والحديث والحفظ والصدق والورع والزهد استوطن نيسابور وتوفي بها سنة (٢٣٨هـ). ينظر: طبقات الفقهاء للشيرازي ص: ٩٤ سير أعلام النبلاء ١١ / ٣٧٢.

وَقَالَ: أَبُو سَعِيدٍ الْمُؤَدَّبُ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ: «لَمْ يَكُنْ يُشَبُّهُ طَلَبُ مُحَمَّدٍ لِلْحَدِيثِ طَلَبَنَا، كَانَ إِذَا نَظَرَ فِي حَدِيثِ رَجُلٍ أَنْزَفَهُ»^(١).

أي: أنه يأخذ جميع أحاديث ذلك المحدث حتى لو استدعى ذلك أن يجلس شهوياً؛ ولذلك قال العباس الدوري: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا يُحَسِّنُ طَلَبَ الْحَدِيثِ مِثْلَ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، كَانَ لَا يَدْعُ أَصْلًا وَلَا فِرْعَاءً إِلَّا قَلَعَهُ»^(٢).

السِّرُّ الثاني - موسوعيته في أخذه عن الشيوخ:

كان موسوعة في أخذه عن الشيوخ، فقد بلغ عددُ شيوخه أكثر من ألف وثمانين محدثاً، وكان هؤلاء المحدثون من أجل علماء الحديث، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعلي بن المديني.

قال البخاري: «لَقِيتُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ أَهْلِ الْحِجَازِ وَالْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ، لَقِيتُهُمْ كَرَّاتٍ، أَهْلَ الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْجَزِيرَةَ مَرَّتَيْنِ، وَأَهْلَ الْبَصْرَةِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَبِالْحِجَازِ سِتَّةَ أَعْوَامٍ، وَلَا أَحْصِي كَمْ دَخَلْتُ الْكُوفَةَ وَبَغْدَادَ مَعَ مُحَدِّثِي خُرَّاسَانَ، مِنْهُمْ: الْمَكِّيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، وَيَحْيَى بْنُ يَحْيَى، وَابْنُ شَقِيقٍ،

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٢٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٠٦).

وَقُتَيْبَةُ، وَشَهَابُ بْنُ مَعْمَرٍ، وَبِالشَّامِ: الْفَرِيَاثِيُّ، وَأَبُو مُسَهِّرٍ، وَأَبُو الْمُغِيرَةِ، وَأَبُو الْيَمَانِ، وَسَمَّى خَلْقًا^(١).

السر الثالث - فحصه لمن يأخذ عنه فحصًا دقيقًا:

وهذا سر عظيم قل من يتصف به، فقد أخذ بأعلى معايير الدقة والجودة في معرفة شيوخه معرفة تامة، يقول هو عن نفسه: «لَمْ تَكُنْ كِتَابَتِي لِلْحَدِيثِ كَمَا كَتَبَ هُوَ لَا».

كُنْتُ إِذَا كَتَبْتُ عَنْ رَجُلٍ سَأَلْتُهُ عَنْ اسْمِهِ وَكُنْيَتِهِ وَنَسَبَتِهِ وَحَمْلِهِ الْحَدِيثِ، إِنْ كَانَ الرَّجُلُ فَهَمًا.

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَأَلْتُهُ أَنْ يُخْرِجَ إِلَيَّ أَصْلَهُ وَنُسَخَتَهُ.

فَأَمَّا الْآخَرُونَ لَا يُبَالُونَ مَا يَكْتُبُونَ، وَكَيْفَ يَكْتُبُونَ^(٢).

وأما تلاميذ الإمام البخاري:

فإن من دلائل عظمة أي عظيم تتلمذ الجهابذة والعظماء على يديه، فهي أكبر دلالة على عظمته، إذ لو لم يكن عظيمًا لما جلس إليه العظماء، وهي

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٠٧ : ٤٠٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٠٦).

من بديهيات النظر^(١)، وقد كان تلامذته من أئمة الدنيا في الحديث الذين بلغوا أوج الشرف وقمة الشهرة، وهم من أركان الدين في نقلهم لسنة خير المرسلين، وعلى روايتهم مدار علم الحديث، وعددهم لا يحصيه إلا الله، فقد كانوا يجتمعون في بعض مجالسه أكثر من عشرين ألف محدث، ومن أبرزهم:

١ - الإمام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح^(٢). قال عنه مسلمة بن قاسم: (ثقة جليل القدر من الأئمة).

وكان يقول عن البخاري: «دَعْنِي أَقْبَلْ رَجُلِيكَ يَا أَسْتَاذَ الْأُسْتَاذِينَ، وَسَيِّدَ الْمُحَدِّثِينَ، وَطَيِّبَ الْحَدِيثِ فِي عِلَلِهِ»^(٣).

(١) فعندما ترى أستاذًا يجلس في حلقاته عشرات الدكاترة تشهد من دون أن تسمع شيئًا من علمه أنه على علم عظيم؛ لأنك ستقول: لو لم يكن عالمًا لما جلس إليه هؤلاء؛ خاصة أنه لم يكن في زمانهم مناصب ووظائف تنال من هذه المجالس.

(٢) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، الإمام الكبير، الحافظ المجود، أحد أعلام أئمة الدنيا، ومن أوسعهم شهرة، وقد لازم البخاري وحذا حذوه، أشهر كتبه «صحيح مسلم»، وتوفي سنة (٢٦١هـ). ينظر: تاريخ دمشق (٨٥/٥٨)، تذكرة الحفاظ (١٥٠/٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣٢).

٢- والإمام أبو عبد الرحمن النسائي صاحب السنن ^(١)، قال أبو الحسين ابن المظفر: «سمعت مشايخنا بمصر يعترفون لأبي عبد الرحمن النسائي بالتقدم والامامة، ويصفون من اجتهاده في العبادة بالليل والنهار ومواظبته على الحج والجهاد وإقامته السنن الماثورة واحترازه عن مجالس السلطان وإن ذلك لم يزل دأبه إلى أن استشهد» ^(٢).

٣- والإمام أبو عيسى الترمذي ^(٣) صاحب الجامع، قال الحاكم: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ عَلَّكَ يَقُولُ: مَاتَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ وَلَمْ يَخْلُفْ بِخُرَّاسَانَ مِثْلَ أَبِي عِيْسَى التِّرْمِذِيِّ فِي الْعِلْمِ وَالزُّهْدِ وَالْوَرَعِ، بَكَى حَتَّى عَمِيَ ^(٤).

(١) هو أحمد بن علي بن شعيب، النسائي، الإمام، الحافظ، المحدث، صاحب السنن، ناقد الحديث، من تصانيفه: «السنن الكبرى»؛ و«المجتبى» وهو السنن الصغرى، و«الضعفاء» وتوفي سنة (٣٠٣هـ). ينظر: وفيات الأعيان (١/ ٧٧) تذكرة الحفاظ (٢/ ٢٤١).

(٢) تهذيب التهذيب (١/ ٣٧).

(٣) هو محمد بن عيسى بن سورة السلمى الترمذي، أبو عيسى، من كبار أئمة علماء الحديث وحفاظه، وكان يضرب به المثل في الحفظ من تصانيفه: «الجامع الكبير» المعروف بـسنن الترمذي، توفي سنة (٢٧٩هـ). ينظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢٧٨) طبقات الحفاظ للسيوطي ص: ٢٨٢.

(٤) ونقل أبو سعد الإدريسي بإسناد له، أن أبا عيسى قال: كنت في طريق مكة فكتبت جزأين من حديث شيخ، فوجدته فسلأته، وأنا أظن أن الجزأين معي، فسلأته، فأجابني، فإذا معي جزآن بياض، فبقي يقرأ علي من لفظه، فنظر، فرأى في يدي ورقا بياضا، فقال: أما تستحي مني؟ فأعلمته بأمرى، وقلت: أحفظه كله. قال: اقرأ. فقرأته عليه، فلم يصدقني، وقال: استطهرت قبل أن تحيىء؟ فقلت: حدثني بغيره. قال: فحدثني بأربعين حديثا، ثم قال: =

من أسرار عظمة الإمام البخاري

بذله وتضحيته

من أسباب عظمة علماء الحديث ما بذلوه وضحووا به من أجل جمع حديث النبي ﷺ فمنهم من باع داره، وضحى بهاله في طلب الحديث، ولهم في ذلك قصص عجيبة تدل على الحرص على جمع الحديث، ونصرة سنة النبي ﷺ، حتى قال ابن عيينة: سَمِعْتُ شُعْبَةَ يَقُولُ: «مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ، بَعَثْتُ أُمِّي بِسَبْعَةِ دَنَانِيرٍ»^(١).

حتى أن الحميدي: سَمِعَ سُفْيَانَ يَقُولُ: «لَا تَدْخُلْ هَذِهِ الْمَحَابِرُ بَيْتَ رَجُلٍ، إِلَّا أَشَقَى أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ».

وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً لِرَجُلٍ: مَا حِرَفْتُكَ؟

قَالَ: طَلَبُ الْحَدِيثِ.

قَالَ: بَشَّرَ أَهْلَكَ بِالْإِفْلَاسِ»^(٢).

=هات. فأعدتها عليه، ما أخطأت في حرف. ينظر: تذكرة الحفاظ: (٢ / ٦٣٥)، وتهذيب التهذيب: (٩ / ٣٨٨ - ٣٨٩).

(١) (٧ / ٢٢٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨ / ٤٦١).

ومن قصصهم في ذلك: ما جاء عن أحمد بن أعين بالمصيصة قال: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ عَاصِمٍ يَقُولُ: «دَفَعَ إِلَيَّ أَبِي مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَقَالَ: اذْهَبْ، فَلَا أَرَى لَكَ وَجْهًا إِلَّا بِمِائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ».

وَبِهِ إِلَى الْخَطِيبِ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ فَضَالَةَ الرَّيِّ، أَخْبَرَنَا أَبُو نَصْرِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ جَعْفَرٍ بَلَّخَ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُؤَدَّبُ، سَمِعْتُ أَحْمَدَ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حَرْبٍ النَّيْسَابُورِيَّ، سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ عَاصِمٍ يَقُولُ:

أَعْطَانِي أَبِي مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَأَتَيْتُهُ بِمِائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ، وَكُنْتُ أُرْدِفُ هَشِيمًا خَلْفِي لِيَسْمَعَ مَعِيَ الشَّيْءَ بَعْدَ الشَّيْءِ»^(١).

وَقَالَ مُحَمَّدَانُ بْنُ هَانِيٍّ الْمُقْرِئُ: سَمِعْتُ خَلْفَ بْنَ هِشَامٍ يَقُولُ: «أَشْكَلَ عَلَيَّ بَابٌ مِنَ النَّحْوِ، فَأَنْفَقْتُ ثَمَانِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ حَتَّى حَذَقْتُهُ»^(٢).

وَانْكَسَرَ قَلَمُ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَامٍ الْبَيْكَنْدِيِّ فِي مَجْلِسِ شَيْخٍ، فَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى: قَلَمٌ بِدِينَارٍ، فَطَارَتْ إِلَيْهِ الْأَقْلَامُ»^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٩ / ٢٥٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٥٧٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠ / ٦٢٩).

وَقَالَ ابْنُ عَدِيٍّ: حَدَّثَنِي شَيْخٌ كَاتِبٌ ذَكَرَ أَنَّهُ قَرَابَةُ يَحْيَى بْنِ مَعِينٍ، قَالَ: «كَانَ مَعِينٌ عَلَى خَرَجِ الرَّيِّ، فَمَاتَ، فَخَلَفَ لِيَحْيَى ابْنُهُ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَأَنْفَقَهُ كُلَّهُ عَلَى الْحَدِيثِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ نَعْلٌ يَلْبَسُهُ»^(١).

قَالَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الرَّبْعِيُّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَيْضِ الْغَسَّائِيُّ، سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ عَمَّارٍ، يَقُولُ: بَاعَ أَبِي بَيْتًا لَهُ بِعِشْرِينَ دِينَارًا، وَجَهَّزَنِي لِلْحَجِّ، فَلَمَّا صَرْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَتَيْتُ مَجْلِسَ مَالِكٍ، وَمَعِيَ مَسَائِلُ أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا.

فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ جَالِسٌ فِي هَيْئَةِ الْمُلُوكِ، وَغُلَامَانُ قِيَامٌ، وَالنَّاسُ يَسْأَلُونَهُ، وَهُوَ يُجِيبُهُمْ.

فَلَمَّا انْقَضَى الْمَجْلِسُ، قَالَ لِي بَعْضُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ: سَلْ عَنْ مَا مَعَكَ؟

فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، مَا تَقُولُ فِي كَذَا وَكَذَا؟

فَقَالَ: حَصَلْنَا عَلَى الصَّبِيَّانِ، يَا غُلَامُ، احْمِلْهُ.

فَحَمَلَنِي كَمَا يُحْمَلُ الصَّبِيُّ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ مُدْرِكٌ، فَضَرَبَنِي بِدِرَّةٍ مِثْلِ دِرَّةِ الْمُعَلِّمِينَ سَبْعَ عَشْرَةَ دِرَّةً، فَوَقَفْتُ أَبْكِي.

(١) سير أعلام النبلاء (١١ / ٧٧).

فَقَالَ لِي: مَا يُبْكِيكَ؟ أَوْ جَعَتِكَ هَذِهِ الدَّرَّةُ؟

قُلْتُ: إِنَّ أَبِي بَاعَ مَنْزِلَهُ، وَوَجَّهَ بِي أَتَشَرَّفُ بِكَ، وَبِالسَّمَاعِ مِنْكَ، فَضَرَبْتَنِي؟
فَقَالَ: اكْتُبْ.

قَالَ: فَحَدَّثَنِي سَبْعَةَ عَشَرَ حَدِيثًا، وَسَأَلْتُهُ عَمَّا كَانَ مَعِيَ مِنَ الْمَسَائِلِ،
فَأَجَابَنِي».

قَالَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ الْهَرَوِيُّ، عَنْ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَافِظِ: سَمِعْتُ
هَشَامَ بْنَ عَمَّارٍ يَقُولُ: «دَخَلْتُ عَلَى مَالِكٍ، فَقُلْتُ لَهُ: حَدِّثْنِي.
فَقَالَ: اقْرَأْ.

فَقُلْتُ: لَا، بَلْ حَدِّثْنِي.

فَقَالَ: اقْرَأْ.

فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: يَا غُلَامُ، تَعَالَ اذْهَبْ بِهَذَا، فَاضْرِبْهُ خَمْسَةَ عَشَرَ.
فَذَهَبَ بِي، فَضَرَبَنِي خَمْسَ عَشْرَةَ دَرَّةً، ثُمَّ جَاءَ بِي إِلَيْهِ، فَقَالَ: قَدْ ضَرَبْتَهُ.
فَقُلْتُ لَهُ: لَمْ ظَلَمْتَنِي؟ ضَرَبْتَنِي خَمْسَ عَشْرَةَ دَرَّةً بِغَيْرِ جُرْمٍ، لَا أَجْعَلُكَ
فِي حِلٍّ.

فَقَالَ مَالِكٌ: فَمَا كَفَّارَتُهُ؟

قُلْتُ: كَفَّارَتُهُ أَنْ تُحَدِّثَنِي بِخَمْسَةِ عَشَرَ حَدِيثًا.

قَالَ: فَحَدِّثَنِي بِخَمْسَةِ عَشَرَ حَدِيثًا.

فَقُلْتُ لَهُ: زِدْ مِنْ الضَّرْبِ، وَزِدْ فِي الْحَدِيثِ.

فَضَحِكَ مَالِكٌ، وَقَالَ: اذْهَبْ».

قَالَ الْخَلِيلِيُّ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ صَالِحِ الْمُقَرِّيِّ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الطُّوسِيَّ، سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ طَرْحَانَ، سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ عَمَّارٍ يَقُولُ: «قَصَدْتُ بَابَ مَالِكٍ، فَهَجَمْتُ عَلَيْهِ بِلا إِذْنٍ، فَأَمَرَ غُلَامًا لَهُ، حَتَّى ضَرَبَنِي سَبْعَةَ عَشَرَ ضَرْبَ السَّلَاطِينِ، وَأَخْرَجْتُ، فَقَعَدْتُ عَلَى بَابِهِ أَبْكِي، وَلَمْ أَبْكِ لِلضَّرْبِ، بَلْ بَكَيْتُ حَسْرَةً، فَحَضَرَ جَمَاعَةٌ.

قَالَ: فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ، فَشَفَعُوا فِيَّ، فَأَمَلَى عَلَيَّ سَبْعَةَ عَشَرَ حَدِيثًا»^(١).

(١) سير أعلام النبلاء (١١ / ٤٢٨ : ٤٢٩).

وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ سُفْيَانَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ يَحْيَى الذُّهَلِيَّ يَقُولُ:
«ارْتَحَلْتُ ثَلَاثَ رَحَلَاتٍ، وَأَنْفَقْتُ عَلَى الْعِلْمِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا، وَلَمَّا دَخَلْتُ
الْبَصْرَةَ اسْتَقْبَلَتْنِي جِنَازَةٌ يَحْيَى الْقَطَّانِ عَلَى بَابِ الْبَصْرَةِ»^(١).

وهكذا سار على دربهم، واقتدى بهديهم مَنْ جاء بعدهم من الأئمة والعلماء، وعلى رأسهم الإمام أبو عبد الله البخاري حيث اقتفى نهج أولئك الصحب الكرام، فقد ورث من والده مالا كثيرا، فماذا يا ترى فعل به؟ هل بنى به بيتا فارها؟ أو تمتع به في ملذات الدنيا الفانية؟! لا، ثم لا، وحاشاه وهو يطلب ما عند الله، وإنما أنفق جميع ماله في نصرة سنة قره عينه، وحبب قلبه رسول الله ﷺ، يقول ورّاقه محمد بن أبي حاتم: قال البخاري: كُنْتُ أَسْتَغِلُّ كُلَّ شَهْرٍ خَمْسَ مِائَةِ دِرْهَمٍ، فَأَنْفَقْتُ كُلَّ ذَلِكَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ.. ثم يقول له بقلب قد امتلأ إيمانا وصدقا: وما عند الله خير وأبقى^(٢).

قال الذهبي معلقا على ذلك: «فَقُلْتُ: كَمْ بَيْنَ مَنْ يَنْفِقُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَبَيْنَ مَنْ كَانَ خَلُوءًا مِنَ الْمَالِ، فَجَمَعَ وَكَسَبَ بِالْعِلْمِ، حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ»^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٢٨٣).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٦/ ١٤٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٩).

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ الْأَشْجَرِيُّ: «كُنَّا مَعَ الْبُخَارِيِّ بِالْبَصْرَةِ نَكْتُبُ، فَفَقَدْنَاهُ أَيَّامًا، ثُمَّ وَجَدْنَاهُ فِي بَيْتٍ وَهُوَ عُرْيَانٌ، وَقَدْ نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَجَمَعْنَا لَهُ الدَّرَاهِمَ وَكَسَوْنَاهُ»^(١).

وهذا هو طريق المحدثين، فهذا يحيى بن معين إمام المحدثين، قال عنه الإمام أحمد: سماع الحديث من يحيى شفاء لما في الصدور، ويحيى خلقه الله لهذا الشأن. أي: ذب الكذب عن حديث رسول الله ﷺ، فقد أنفق هذا الإمام مليون درهم ورثها عن أبيه حتى لم يبق له نعل يلبسه.

وهذا شعبة بن الحجاج وصل به الحال من بذله وتضحيته في خدمة حديث رسول الله ﷺ أنه باع جذوع سقف بيته، وكذلك الإمام مالك باع بعض جذوع بيته من أجل الحديث.

وأما الحافظ الكبير الثبت أبو سهل الهيثم البغدادي يقول: «أفلسرت مرتين»، وكذلك زياد البكائي كان من أثبت من روى كتاب المغازي عن أبي إسحاق، والسبب أنه باع بيته، ولازم محمد بن إسحاق يدور معه حيث دار.

ومر آنفاً من عجيب تربية الآباء لأبنائهم على البذل والتضحية في سبيل طلب الحديث ما ذكره المحدث عليُّ بنُ عاصمٍ عن أبيه، يقول: أعطاني والدي مائة ألف درهم، وقال: لا أرك إلا وقد جمعت مائة ألف حديث. وبعد سنوات من الرحلة والتطواف رجعت إلى والدي وقد جمعت مائة ألف حديث.

واشتهر بين العلماء أن طلبَ الحديث علم المفاليس، أي: نهاية صاحبه الإفلاس، يقول سفيان بن عيينة إمام وشيخ المحدثين في مكة لرجل: «ما حِرَفْتُكَ؟ قَالَ: طلب الحديث. قَالَ: «بَشِّرْ أَهْلَكَ بِالْإِفْلَاسِ»^(١)، وهذا شعبة ابن الحجاج أبو بسطام، أبو الفقراء وإمام الدنيا في زمانه في الحديث يقول كذلك: «مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ»^(٢).

ولماذا سمي بعلم المفاليس؟

لأنهم ينفقون كل غال ونفيس في جمع حديث خير المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس عندهم وقت ليكونوا تجاراً أو أجراء لغيرهم؛ لأنهم غير مستقرين

(١) الجامع لأخلاق الراوي والسامع (١٠٠/١)

(٢) المصدر السابق (١/٩٩)

بل يرحلون ويتنقلون من مدينة إلى مدينة، وهم كذلك محتاجون لشراء الأوراق والأخبار .

حتى قال الشيلي: «أعرف مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي هَذَا الشَّأْنِ حَتَّى أَنْفَقَ جَمِيعَ ملكه، وَغَرَّقَ سَبْعِينَ قِمْطَرًا بِخَطِّهِ فِي دَجَلَةٍ الَّتِي تَرُونَ، وَحَفِظَ (الْمُوطَّأً)، وَتَلَا بَكْذَا وَكَذَا قِرَاءَةً - يَعْنِي: نَفْسَهُ» ^(١) - .

عِلْمُ الْحَدِيثِ أَجَلُ السُّؤْلِ وَالْوَطْرِ
بَعْدَ الْكِتَابِ بَلَا شَكٍّ لَدَى الْبَشَرِ

فَانْقُلْ رِحَالَكَ عَنْ مَعْنَاكَ مُرْتَحَلًا
لِكَيْ تَفُوزَ بِنَقْلِ الْعِلْمِ وَالْأَثَرِ

وَلَا تَقُلْ: عَاقِبِي شُغْلٍ، فَكَيْسَ يُرَى
فِي التَّرْكِ لِلْعِلْمِ مِنْ عُذْرِ لِمُعْتَذِرِ

وَأَيُّ شُغْلٍ كَمِثْلِ الْعِلْمِ تَطْلُبُهُ
وَنَقْلُ مَا قَدْ رَوَوْا عَنْ سَيِّدِ الْبَشَرِ؟

أَلْهَى عَنِ الْعِلْمِ أَقْوَامًا تَطْلُبُهُمْ
لَذَاتِ دُنْيَا غَدَوْا مِنْهَا عَلَى غَرَرِ

(١) سير أعلام النبلاء (١٥ / ٣٦٩).

وَالْحَقُّ بِقَوْمٍ إِذَا لَاحَتْ وُجُوهُهُمْ
رَأَيْتَهَا مِنْ سَنَا التَّوْفِيقِ كَالْقَمَرِ
أَضْحَوْا مِنَ السَّنَةِ الْعَلِيَاءِ فِي سَنٍ
سَهْلٍ وَقَامُوا بِحِفْظِ الدِّينِ وَالْأَثَرِ
أَجَلٌ شَيْءٍ لَدَيْهِمْ قَالَ أَخْبَرَنَا
عَنِ الرَّسُولِ بِمَا قَدْ صَحَّ مِنْ خَبَرٍ
هَذِي الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ لَبَنِ
وَلَا التَّمَتُّعَ بِاللذَاتِ وَالْأَشْرِ

ومن خلال هذه النماذج الفريدة العظيمة السيرة للإمام البخاري وإخوانه من المحدثين الصادقين الباذلين نوجه رسالةً إلى أمتنا الغالية أنك لن تكون لك الريادة والسيادة والذكر الحسن إلا بالبدل والعطاء من أجل نصرة دين الله وسنة خير خلق الله صلوات ربي وسلامه عليه.

وإليك أبيات تجلي بعض ما بذله أهل الحديث:

جَزَى اللهُ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ مَثُوبَةً
وَبَوَّاهُمْ فِي الْخُلْدِ أَعْلَى الْمَنَازِلِ

فلولا اعتنائهم بالحديث وحفظه
ونفيهم عنه ضروب الأباطل

وإنفاقهم أعمارهم في طلابه
وبحثهم عنه بجدٍ موصل

لما كان يدرني من عدا متفقها
صحيح حديث من سقيم وباطل

ولم يستتب ما كان في الذكر مجملًا
ولم ندر فرضًا من عموم التوافل

لقد بذلوا فيه نفوسًا نفيسة
وباعوا بحدّ أجل كلّ عاجل

فحبهم فرض على كلّ مسلم
وليس يُعاديهم سوى كل جاهل

* * *

من أسرار عظمته

صبره وحرصه على طلب الحديث

من أبرز أسرار العطاء: صبرهم، وهمهم الدائم، وتفانيهم المستمر، وشغفهم، وحرصهم على كل ما فيه إتقان لعملهم، وقد ضرب الإمام البخاري أروع الأمثال في عظيم جَلَدِهِ، وعجيب تفانيه، وتفكيره، وهمه الدائم في تقييد كل ما يتعلق بخدمة سنة رسول الله ﷺ، حتى لو ضحى بلذيق نومه، يقول محمد بن أبي حاتم الوراق: كَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، إِذَا كُنْتُ مَعَهُ فِي سَفَرٍ، يَجْمَعُنَا بَيْتٌ وَاحِدٌ إِلَّا فِي الْقِيْظِ أَحْيَانًا، فَكُنْتُ أَرَاهُ يَقُومُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً إِلَى عِشْرَيْنَ مَرَّةً، فِي كُلِّ ذَلِكَ يَأْخُذُ الْقَدَاحَةَ، فَيُورِي نَارًا، وَيُسْرِجُ، ثُمَّ يُخْرِجُ أَحَادِيثَ، فَيَعْلَمُ عَلَيْهَا^(١) ..

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: سَمِعْتُ هَانِئَ بْنَ النَّضْرِ يَقُولُ: كُنَّا عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ -يَعْنِي: الْفَرْيَابِيَّ- بِالشَّامِ وَكُنَّا نَنْتَزِعُهُ فِعْلَ الشَّبَابِ فِي أَكْلِ

الْفِرْصَادِ^(١) وَنَحْوِهِ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ مَعَنَا، وَكَانَ لَا يُزَاحِمُنَا فِي شَيْءٍ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ، وَيُكِبُّ عَلَى الْعِلْمِ^(٢).

وَقَالَ: سَمِعْتُ الْعَبَّاسَ الدُّورِيَّ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا يُحْسِنُ طَلَبَ الْحَدِيثِ مِثْلَ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، كَانَ لَا يَدْعُ أَصْلًا وَلَا فِرْعَا إِلَّا قَلْعَهُ. ثُمَّ قَالَ لَنَا: لَا تَدْعُوا مِنْ كَلَامِهِ شَيْئًا إِلَّا كَتَبْتُمُوهُ^(٣).

أي: همة تعدل همتك يا أبا عبد الله؟! وأي جهد يسامي جهدك؟!

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وقال جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَطَّانُ إِمَامُ كَرَمِيْنِيَّةَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ يَقُولُ: كَتَبْتُ عَنْ أَلْفِ شَيْخٍ وَأَكْثَرَ، عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَشْرَةُ آلَافٍ وَأَكْثَرَ، مَا عِنْدِي حَدِيثٌ إِلَّا أَذْكُرُ إِسْنَادَهُ^(٤).

وكما أنهم كانوا يضحون بلذيق نعيم العيش، فكذلك كانت لهم نفوس أبيّة وعزة نفس عليّة، فلا يسألون أحداً شيئاً، وحالهم كما قال النبي

(١) أي: التوت، وقيل حمله، وهو الاحمر منه.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٠٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٠٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٠٧).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصحابته: «مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، فَأَتَكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ»^(١) فهذا حال أمير المؤمنين.

يقول وراقه مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: «سَمِعْتُ الْبُخَارِيَّ يَقُولُ: خَرَجْتُ إِلَى آدَمَ بْنِ أَبِي إِيَّاسٍ، فَتَخَلَّفْتُ عَنِّي نَفَقَتِي، حَتَّى جَعَلْتُ أَتَنَاوُلُ الْحَشِيشَ، وَلَا أُخْبِرُ بِذَلِكَ أَحَدًا.

ولكن هل يُضِيع من بيده خزائن السموات والأرض أولياءه؟ لا ثم ..

يقول وراقه: «فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّلَاثُ أَتَانِي آتٍ لَمْ أَعْرِفْهُ، فَنَاوَلَنِي صُرَّةَ دَنَانِيرٍ، وَقَالَ: أَنْفِقْ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢).

ويقول عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ الْأَشَقَرُ: «كُنَّا مَعَ الْبُخَارِيِّ بِالْبَصْرَةِ نَكْتُبُ، فَفَقَدْنَاهُ أَيَّامًا، ثُمَّ وَجَدْنَاهُ فِي بَيْتٍ وَهُوَ عُرْيَانٌ، وَقَدْ نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَجَمَعْنَا لَهُ الدَّرَاهِمَ، وَكَسَوْنَاهُ»^(٣).

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (١ / ٥١٩) برقم: (٢٥٨٩)، وأبو داود في «سننه» (٢ / ٤٢) برقم: (١٦٤٣)، وابن ماجه في «سننه» (٣ / ٤٦) برقم: (١٨٣٧)، وأحمد في «مسنده» (١٠ / ٥٢٦٣) برقم: (٢٢٧٩٩)، وصححه ابن عبد البر في التمهيد (٤ / ٩٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٤٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٤٨).

ولم تكن هذه الصفحات المشرقة في التضحية خاصة بالإمام البخاري؛ بل كان هذا حال أكثر المحدثين يبذلون كلَّ غالٍ ونفيس في خدمة سنة خير المرسلين **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فهذا قرينه أبو حاتم إمام الدنيا في زمانه في الجرح والتعديل يقول عن نفسه: «بَقِيتُ فِي سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ، ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ بِالْبَصْرَةِ، وَكَانَ فِي نَفْسِي أَنْ أُقِيمَ سَنَةً، فَأَنْقَطَعَتْ نَفَقَتِي، فَجَعَلْتُ أُبِيعُ ثِيَابِي حَتَّى نَفَدْتُ، وَبَقِيتُ بِلاَ نَفَقَةٍ، وَمَضَيْتُ أَطُوفُ مَعَ صَدِيقِي إِلَى الْمَشِيخَةِ، وَأَسْمَعُ إِلَى الْمَسَاءِ، فَأَنْصَرِفَ رَفِيقِي، وَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي، فَجَعَلْتُ أَشْرَبُ الْمَاءَ مِنَ الْجُوعِ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ، فَعَدَا عَلِيٌّ رَفِيقِي، فَجَعَلْتُ أَطُوفُ مَعَهُ فِي سَمَاعِ الْحَدِيثِ عَلَى جُوعٍ شَدِيدٍ، وَأَنْصَرَفْتُ جَائِعًا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، عَدَا عَلِيٌّ، فَقَالَ: مُرَّ بِنَا إِلَى الْمَشَايخِ.

قُلْتُ: أَنَا ضَعِيفٌ لَا يُمْكِنُنِي.

قَالَ: مَا ضَعْفُكَ؟

قُلْتُ: لَا أَكْتُمُكَ أَمْرِي، قَدْ مَضَى يَوْمَانِ مَا طَعَمْتُ فِيهِمَا شَيْئًا.

فَقَالَ: قَدْ بَقِيَ مَعِيَ دِينَارٌ، فَنِصْفُهُ لَكَ، وَنَجْعَلُ النِّصْفَ الْآخَرَ فِي الْكِرَاءِ،
فَخَرَجْنَا مِنَ الْبَصْرَةِ، وَأَخَذْتُ مِنْهُ النِّصْفَ دِينَارًا^(١).

وإن تعجب فاعجب من هذه الهمم العلية لما سئل الطبراني صاحب
المعاجم الثلاثة الكبير والأوسط والصغير عن كثرة حديثه قال: «كنت أنام
على الحصر ثلاثين سنة».

وأما حماد بن أسامة يقول: «كَتَبْتُ بِأُصْبُعِي هَاتَيْنِ مِائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ»^(٢).
بل وصل بهم الأمر من الصبر والجلد والتضحية إلى أن الواحد قد
يتعرض إلى أن يشرب بوله، لعدم وجود الماء، يقول الحافظ عبد الرحمن
ابن خراش: «شَرِبْتُ بُولِي فِي هَذَا الشَّأْنِ -يَعْنِي الْحَدِيثَ- خَمْسَ مَرَّاتٍ»^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (١٣ / ٢٥٧)، وهنا أذكر قصة واقعية فيها عبرة وعظة وهي لرجل
معروف بتفريح كربات الناس ومساعدة البهائم وإعانتهم يحدثنني بها عمي عن عبيد
يقول: بينما هو في منطقة صحراء وهو يعيش في قرية ومعه سيارة قديمة فتوقفت فنزل
لكي يصلحها إلا أن مقدمة السيارة وهو يصلحها انطبق على يديه فلم يستطع إخراجها
فإذا برجل يناديه عبيد، خير إن شاء الله قال له ادخل السيارة وافتح كبوت السيارة ففتحه
ثم بحث عنه فلم ير له أثرًا.

(٢) سير أعلام النبلاء (٩ / ٢٧٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٣ / ٥٠٩).

وذلك في حال الاضطرار وعدم توفر المياه، ولم يكن في زمانهم في طرق رحلاتهم محطات ولا استراحات، وإنما مفاوز ومقطعة.

ومنهم من تعرض للموت في سبيل هذا الشأن، قال أبو حاتم: «خَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، مِنْ عِنْدِ دَاوُدَ الْجَعْفَرِيِّ، وَصَرْنَا إِلَى الْجَارِ وَرَكِبْنَا الْبَحْرَ، فَكَانَتْ الرِّيحُ فِي وَجْهِهَا، فَبَقِينَا فِي الْبَحْرِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَصَاقَتْ صُدُورُنَا، وَفَنِيَ مَا كَانَ مَعَنَا، وَخَرَجْنَا إِلَى الْبَرِّ نَمْشِي أَيَّامًا، حَتَّى فَنِيَ مَا تَبَقِيَ مَعَنَا مِنَ الزَّادِ وَالْمَاءِ، فَمَشِينَا يَوْمًا لَمْ نَأْكُلْ وَلَمْ نَشْرَبْ، وَيَوْمَ الثَّانِي كَمَثَلِ، وَيَوْمَ الثَّالِثِ، فَلَمَّا كَانَ يَكُونُ الْمَسَاءَ صَلَّيْنَا، وَكُنَّا نُلْقِي بَأَنفُسِنَا حَيْثُ كُنَّا، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، جَعَلْنَا نَمْشِي عَلَى قَدَرِ طَاقَتِنَا، وَكُنَّا ثَلَاثَةَ أَنْفُسٍ: شَيْخٌ نَيْسَابُورِيٌّ، وَأَبُو زُهَيْرٍ الْمَرْوَرُودِيُّ، فَسَقَطَ الشَّيْخُ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَجِئْنَا نَحْرُكُهُ وَهُوَ لَا يَعْقِلُ، فَتَرَكْنَاهُ، وَمَشِينَا قَدَرِ فَرْسَخٍ، فَضَعُفْتُ، وَسَقَطْتُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، وَمَضَى صَاحِبِي يَمْشِي، فَبَصُرَ مِنْ بُعْدٍ قَوْمًا، قَرَّبُوا سَفِينَتَهُمْ مِنَ الْبَرِّ، وَنَزَلُوا عَلَى بَنَرٍ مُوسَى، فَلَمَّا عَايَنَهُمْ، لَوَّحَ بِثَوْبِهِ إِلَيْهِمْ، فَجَاؤُوهُ مَعَهُمْ مَاءً فِي إِدَاوَةٍ. فَسَقَوْهُ وَأَخَذُوا بِيَدِهِ.

فَقَالَ لَهُمُ: الْحَقُّوا رَفِيقَيْنِ لِي، فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِرَجُلٍ يَصُبُّ الْمَاءَ عَلَى وَجْهِهِ، فَفَتَحْتُ عَيْنِي، فَقُلْتُ: اسْقِنِي، فَصَبَّ مِنْ الْمَاءِ فِي مَشْرَبَةٍ قَلِيلًا، فَشَرِبْتُ، وَرَجَعْتُ إِلَيَّ نَفْسِي، ثُمَّ سَقَانِي قَلِيلًا، وَأَخَذَ بِيَدِي، فَقُلْتُ: وَرَائِي شَيْخٌ مُلْقَى، فَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَيْهِ، وَأَخَذَ بِيَدِي، وَأَنَا أَمْشِي وَأَجُرُّ رَجُلِي، حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ إِلَى عِنْدِ سَفِينَتِهِمْ، وَأَتَوُا بِالشَّيْخِ، وَأَحْسَنُوا إِلَيْنَا، فَبَقِينَا أَيَّامًا حَتَّى رَجَعْتُ إِلَيْنَا أَنْفُسَنَا، ثُمَّ كَتَبُوا لَنَا كِتَابًا إِلَى مَدِينَةِ يُقَالُ لَهَا: رَايَةَ، إِلَى وَالْيَهُودِ، وَزَوَّدُونَا مِنَ الْكَعْكِ وَالسَّوِيقِ وَالْمَاءِ.

فَلَمْ نَزَلْ نَمْشِي حَتَّى نَفِدَ مَا كَانَ مَعَنَا مِنَ الْمَاءِ وَالْقَوْتِ، فَجَعَلْنَا نَمْشِي جِيَاعًا عَلَى شَطِّ الْبَحْرِ، حَتَّى دُفِعْنَا إِلَى سُلْحَفَةٍ مِثْلِ الثُّرْسِ، فَعَمَدْنَا إِلَى حَجَرٍ كَبِيرٍ، فَضَرَبْنَا عَلَى ظَهْرِهَا، فَاثْقَلَتْ، فَإِذَا فِيهَا مِثْلُ صُفْرَةِ الْبَيْضِ، فَتَحَسَّيْنَاهُ حَتَّى سَكَنَ عَنَّا الْجُوعُ ثُمَّ وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةِ الرَّايَةِ، وَأَوْصَلْنَا الْكِتَابَ إِلَى عَامِلِهَا، فَأَنْزَلَنَا فِي دَارِهِ، فَكَانَ يُقَدِّمُ لَنَا كُلَّ يَوْمٍ الْقُرْعَ، وَيَقُولُ لِحَادِمِهِ: هَاتِي لَهُمُ الْيَقْطِينَ الْمُبَارَكِ، فَيَقْدِمُهُ مَعَ الْخُبْزِ أَيَّامًا.

فَقَالَ وَاحِدٌ مِنَّا: أَلَا تَدْعُو بِاللَّحْمِ الْمَشْؤُومِ؟! فَسَمِعَ صَاحِبُ الدَّارِ، فَقَالَ: أَنَا أَحْسِنُ بِالْفَارِسِيَّةِ، فَإِنَّ جَدَّتِي كَانَتْ هَرَوِيَّةَ، وَأَتَانَا بَعْدَ ذَلِكَ بِاللَّحْمِ، ثُمَّ زَوَّدَنَا إِلَى مِصْرَ»^(١).

صبرهم حتى عند موتهم بتحديثهم بحديث رسول الله ﷺ

ومن عجيب حرصهم على تبليغ سنة نبيهم وجريانها في أجسادهم جريان الأرواح هذه القصة العجيبة التي يحدثنا بها إمام العلل أبو حاتم يقول: لما حضرت الوفاء أبا زرعة، وما أدرك ما أبو زرعة؟^(٢)، وقد أصابه الطاعون، وبدأ يعرق جبينه، فأردوا أن يُذكِّروه الشهادة، ولكنهم هابوا ذلك لإمامته، فما كان من أبي حاتم إلا أن قال لمحمد بن مسلم بن وارة: ما تحفظ في تلقين الموتى: لا إله إلا الله؟ فقال محمد بن مسلم: يروى عن معاذ ابن جبل.

وقبل أن يستتم الحديث رفع أبو زرعة رأسه وهو في النزاع، فقال: روى

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/٢٥٨: ٢٥٧).

(٢) هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ، أبو زرعة، الإمام، سيد الحفاظ، محدث الري، كان إماماً ربانياً، وحافظاً متقناً، وكان يحفظ مائة ألف حديث، حتى قيل: «كل حديث لا يعرف أبو زرعة ليس له أصل»، وتوفي سنة (٢٦٤هـ). ينظر: تاريخ بغداد (٣٣/٢) سير أعلام النبلاء (١٣/٦٥).

عبد الحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرّة، عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١)، فصار في البيت ضجّة بكاءٍ من حَضَرَ^(٢).

وهذا عبد الرحمن بن أبي حاتم يقول في «تقدمة الجرح والتعديل»: «حضرتُ أبي رَحْمَةُ اللَّهِ وكان في النزع وأنا لا أعلم، فقلت له: هل عُقِبَ بن عبد الغافر يروي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال برأسه لا، فلم أُنْعِ منه، فقلت: فهمتَ عني؟ له صحبة؟ قال: هو تابعي.

قال ابن أبي حاتم: «فكان أبي سيد عمله: معرفة الحديث، وناقلة الأخبار، فكان في عمره يُقْتَبَسُ منه ذلك، فأراد الله أن يُظْهَرَ عند وفاته ما كان عليه في حياته»^(٣).

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٣/٣١٨) برقم: (٣١١٦)، وأحمد في «مسنده» (٣٦ / ٣٦٣) برقم: (٢٢٠٣٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧٦ / ١٣).

(٣) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (١/٣٦٨)، ط: مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن - الهند.

سَلَامِي عَلَى أَهْلِ الْحَدِيثِ فَإِنَّهُمْ
بِهِمْ يَهْتَدِي مَنْ يَقْتَدِي بِعُلُومِهِمْ
وَيُخَيِّ بِهَمْ مَنْ مَاتَ بِالْجَهْلِ قَلْبُهُ
لَهُمْ حُلٌّ قَدْ زَيَّنَتْهُمْ مِنَ الْهَدَى
وَمَنْ يَكُنِ الْوَحْيُ الْمُطَهَّرُ عِلْمُهُ
وَمَا يَسْتَوِي تَالِي الْحَدِيثِ وَمَنْ تَلَا

مَصَابِيحُ عِلْمٍ، بَلْ نُجُومُ سَمَائِهِ
وَيُرْقَى بِهِمْ ذُو الدَّاءِ عِلَّةَ دَائِهِ
فَهُمْ كَالْحَيَا تَحْيَا الْبَقَاءُ بِمَا بِهِ
إِذَا مَا تَرَدَّى ذُو الرَّدَى بِرِدَائِهِ
فَلَا رَيْبَ فِي تَوْفِيقِهِ وَاهْتِدَائِهِ
زَخَارِفَ مَنْ أَهْوَاهِ وَهَذَا بِهِ



من أسرار عظمته

حافظته الفولا ذية

إن الله جَلَّ وَعَلَا أنزل أدياناً سماوية قبل دين الإسلام، ووكل حفظها إلى علمائها، إلا أنهم لم يقوموا بحفظها يقول سبحانه: ﴿وَالرَّابِّثُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فنسخ جميع تلك الأديان، وأبقى دين الإسلام الدين الوحيد، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وخص الله دين الإسلام الذي هو خاتمة الأديان بخصائص، ومنها: أنه تكفل بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. ومن تمام وكمال حفظه أن حَفِظَ القرآن الذي هو كلامه، وحفظ كلام من قام ببيانه وهو كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن سخرهم الله لحفظ هذين النورين رجالاً اصطفاهم واجتباهم، وسخر لهم من الإمكانات والقدرات ما يكونون به حجة على هذه الأمة، ووكل إليهم هذه المهمة الشاقة، وكان

أسرار عظمة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ

على رأسهم من صحابة رسول الله أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ترك كل شيء لأجل حفظ حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وسخر من التابعين حفاظاً، كأمثال: سعيد بن المسيب، وقتادة، وابن سيرين.

وسخر من أتباع التابعين أئمة وحفاظاً، كأمثال: مالك بن أنس، وشعبة بن الحجاج، والأعمش.

إلى عصر إمامنا البخاري فكان آيةً من آيات الله في الحفظ والإتقان، وقد ظهر ذلك فيه منذ نعومة أظفاره، وتواترت القصص في قوة حفظه وعبقريته، يقول عن نفسه أنه لما بلغ عشر سنين ألهم الحديث، وكان لا يسمع شيئاً مرة واحدة إلا حفظه، ولا يحتاج معه إلى تكرار^(١).

وَبِالسَّنَدِ الْمَاضِي إِلَى مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي حَاتِمٍ، قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: كَيْفَ كَانَ بَدْءُ أَمْرِكَ؟

قَالَ: أَهْمْتُ حِفْظَ الْحَدِيثِ وَأَنَا فِي الْكُتَابِ.

فَقُلْتُ: كَمْ كَانَ سِنُّكَ؟

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر (ص: ٤٨٧).

فَقَالَ: عَشْرُ سِنِينَ، أَوْ أَقَلَّ، ثُمَّ خَرَجْتُ مِنَ الْكِتَابِ بَعْدَ الْعَشْرِ، فَجَعَلْتُ أُخْتَلِفُ إِلَى الدَّاخِلِيِّ وَغَيْرِهِ، فَقَالَ يَوْمًا فِيمَا كَانَ يَقْرَأُ لِلنَّاسِ: سُفْيَانُ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ أَبَا الزُّبَيْرِ لَمْ يَرَوْ عَنْ إِبْرَاهِيمَ.

فَانْتَهَرَنِي، فَقُلْتُ لَهُ: ارْجِعْ إِلَى الْأَصْلِ فَدَخَلَ فَنَظَرَ فِيهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ لِي: كَيْفَ هُوَ يَا غُلَامٌ؟

قُلْتُ: هُوَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَدِيٍّ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، فَأَخَذَ الْقَلَمَ مِنِّي، وَأَحْكَمَ كِتَابَهُ، وَقَالَ: صَدَقْتُ^(١).

يقول سليم بن مجاهد: كنت عند محمد بن سلام البيكندي فقال لي: لو جئتَ قبلَ لرأيتَ صبيًّا يحفظ سبعين ألفَ حديثٍ . قال: فخرجت في طلبه حتى لقيته، فقلت: أنت الذي تقول: أنا أحفظ سبعين ألفَ حديثٍ ؟ قال: نعم، وأكثر منه، ولا أجيئك بحديث من الصحابة أو التابعين، إلا عرفت مولد أكثرهم، ووفاتهم، ومساكنهم، ولست أروي حديثًا من حديث الصحابة، أو التابعين ؛ - يعني من الموقوفات - إلا وله أصل أحفظ ذلك عن كتاب الله وسنة رسوله^(٢) .

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٣٩٣).

(٢) هدى الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر (ص: ٤٨٧).

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعت حاشد بن إسماعيل وآخر يقولان: كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام، فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يوماً بعد ستة عشر يوماً: إنكما قد أكثرتما عليّ وألححتما، فأعرضا عليّ ما كتبتما. فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فزاد عليّ خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر القلب، حتى جعلنا نُحَكِّمُ كُتُبَنَا مِنْ حِفْظِهِ. ثم قال: أترون أني أختلف هَدَرًا، وأضيع أيامي؟! فعرّفنا أنه لا يتقدمه أحد^(١).

ولم يكن حفظه مقتصرًا على السماع من مرة واحدة؛ بل كان يلتهم الكتب التهامًا من نظرة واحدة، وهذا قلّ أن يجتمع في رجل أن يجمع له الحفظ من مرة بالسماع والنظر.

(١) تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (٢ / ١٥)، طبقات الخنابلة (١ / ٢٧٦)، تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢ / ٦١)، سير أعلام النبلاء ط الحديث (١٠ / ٨٧).

يقول أبو بكر الكلؤاذاني: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل، كان يأخذ الكتابَ مِنَ العلماء، فيطلع عليه اطلاعاً، فيحفظ عامةً أطرافِ الأحاديثِ بِمَرَّةٍ^(١).

ولذلك يقول هو عنه نفسه: «لَمَّا طَعَنْتُ فِي سِتِّ عَشْرَةِ سَنَةٍ، كُنْتُ قَدْ حَفِظْتُ كِتَابَ ابْنِ الْمُبَارَكِ وَوَكَيْعٍ، وَعَرَفْتُ كَلَامَ هَؤُلَاءِ، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَ أُمِّي وَأَخِي أَحْمَدَ إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا حَجَجْتُ رَجَعَ أَخِي بِهَا! وَتَخَلَّفْتُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ»^(٢).

ثم مكث في بلده ستَّ سنواتٍ وهو يحفظ كل ما عند علماء خراسان حتى حفظ سبعين ألف حديث.

ثم بدأ يزداد حفظه حتى بلغ مائتي ألف حديث، قال علي بن الحسين البيكندي: قدم علينا محمد بن إسماعيل، قال: فاجتمعنا عنده، فقال بعضنا: سمعتُ إسحاقَ بنَ راهويه يقول: كأني أنظر إلى سبعين ألفَ حديثٍ مِنْ

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤١٦).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٣٩٣).

كِتَابِي. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ: أَوْ تَعْجَبُ مِنْ هَذَا؟! لَعَلَّ فِي هَذَا الزَّمَانِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى مَائَتِي أَلْفِ حَدِيثٍ مِنْ كِتَابِهِ. «وإِنَّمَا عَنَى بِهِ نَفْسَهُ»^(١).

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: «سَمِعْتُ أَبَا عُمَرَ سُلَيْمَ بْنَ مُجَاهِدٍ يَقُولُ: كُنْتُ عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَامٍ الْبَيْكَنْدِيِّ، فَقَالَ: لَوْ جِئْتُ قَبْلَ لِرَأَيْتُ صَبِيًّا يَحْفَظُ سَبْعِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ.

قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ حَتَّى لِحَقُّهُ.

قَالَ: أَنْتَ الَّذِي يَقُولُ: إِنِّي أَحْفَظُ سَبْعِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ؟

قَالَ: نَعَمْ، وَأَكْثَرُ، وَلَا أَجِئُكَ بِحَدِيثٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ إِلَّا عَرَفْتُكَ مَوْلِدَ أَكْثَرِهِمْ وَوَفَاتِهِمْ وَمَسَاكِنَهُمْ، وَلَسْتُ أُرَوِّي حَدِيثًا مِنْ حَدِيثِ الصَّحَابَةِ أَوْ التَّابِعِينَ إِلَّا وَلِي مِنْ ذَلِكَ أَصْلٌ أَحْفَظُهُ حِفْظًا عَنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٢).

وقد انتشرت قدرة الإمام البخاري على الحفظ إلا أن ذلك لم يصل به إلى العالمية حتى طبقت عليه أعلى معايير الإتقان والجودة، وهي الاختبارات

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤١٦).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤١٧).

المفاجئة لحفظه التي تشهد على إتقانه، وعجيب حفظه، فكانت من الأسباب الرئيسة التي اكسبته الشهرة الواسعة، والإذعان له بالحفظ والإتقان، ومن عجائب تلك القصص:

الاختبار الأول - اختبار أهل الحديث في بغداد:

وَقَالَ أَبُو أَحْمَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَدِيٍّ الْحَافِظُ: «سَمِعْتُ عِدَّةَ مَشَايخٍ يَحْكُونُ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ قَدِمَ بَغْدَادَ، فَسَمِعَ بِهِ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ، فَاجْتَمَعُوا وَعَمَدُوا إِلَى مَائَةِ حَدِيثٍ، فَقَلَّبُوا مُتُونَهَا وَأَسَانِيدَهَا، وَجَعَلُوا مَتْنَهُ هَذَا الْإِسْنَادَ هَذَا، وَإِسْنَادَ هَذَا الْمَتْنِ هَذَا، وَدَفَعُوا إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ عَشْرَةَ أَحَادِيثَ لِيُثْبِتُوهَا عَلَى الْبُخَارِيِّ فِي الْمَجْلِسِ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ، وَانْتَدَبَ أَحَدُهُمْ، فَسَأَلَ الْبُخَارِيَّ عَنْ حَدِيثٍ مِنْ عَشْرَتِهِ، فَقَالَ: لَا أَعْرِفُهُ.

وَسَأَلَهُ عَنْ آخَرٍ، فَقَالَ: لَا أَعْرِفُهُ.

وَكَذَلِكَ حَتَّى فَرَغَ مِنْ عَشْرَتِهِ.

فَكَانَ الْفُقَهَاءُ يَلْتَفِتُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَيَقُولُونَ: الرَّجُلُ فِيهِمْ.

وَمَنْ كَانَ لَا يَدْرِي قَضَى عَلَى الْبُخَارِيِّ بِالْعَجْزِ، ثُمَّ انْتَدَبَ آخَرُ، فَفَعَلَ

كَمَا فَعَلَ الْأَوَّلُ.

وَالْبُخَارِيُّ يَقُولُ: لَا أَعْرِفُهُ.

ثُمَّ الثَّالِثَ وَإِلَى تَمَامِ الْعَشْرَةِ أَنْفُسٍ، وَهُوَ لَا يَزِيدُهُمْ عَلَى: لَا أَعْرِفُهُ.
فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ قَدْ فَرَّغُوا، التَفَتَ إِلَى الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، فَقَالَ: أَمَّا حَدِيثُكَ
الْأَوَّلُ فَكَذَا، وَالثَّانِي كَذَا، وَالثَّالِثُ كَذَا إِلَى الْعَشْرَةِ، فَرَدَّ كُلُّ مَتْنٍ إِلَى إِسْنَادِهِ.
وَفَعَلَ بِالْآخَرِينَ مِثْلَ ذَلِكَ.

فَأَقْرَأَهُ النَّاسُ بِالْحِفْظِ.

فَكَانَ ابْنُ صَاعِدٍ إِذَا ذَكَرَهُ يَقُولُ: الْكِبْشُ النَّطَّاحُ^(١).

الإختبار الثاني - أهل الحديث في سمرقند.

وبنحو اختبار أهل بغداد أراد أربعمائة من المحدثين من أهل سمرقند
أن يختبروا البخاري، فأدخلوا إسناد أهل الحجاز في اليمن والعكس، فما
وجدوا عليه سقطة.

قال سُلَيْمٌ بْنُ مُجَاهِدٍ، سَمِعْتُ أَبَا الْأَزْهَرِ يَقُولُ: «كَانَ بِسَمَرْقَنْدَ أَرْبَعُ
مِائَةٍ مِمَّنْ يَطْلُبُونَ الْحَدِيثَ، فَاجْتَمَعُوا سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَأَحْبَبُوا مُعَالِطَةَ مُحَمَّدِ بْنِ

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤٠٨ - ٤٠٩).

إِسْمَاعِيلَ، فَأَدْخَلُوا إِسْنَادَ الشَّامِ فِي إِسْنَادِ الْعِرَاقِ، وَإِسْنَادَ الْيَمَنِ فِي إِسْنَادِ الْحَرَمَيْنِ، فَمَا تَعَلَّقُوا مِنْهُ بِسَقْطَةٍ لَا فِي الْإِسْنَادِ، وَلَا فِي الْمَتْنِ^(١).

الاختبار الثالث - أهل الحديث في البصرة.

قَالَ غُنْجَارٌ: حَدَّثَنَا مَنْصُورُ بْنُ إِسْحَاقَ الْأَسَدِيُّ، سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الزَّاعُوِيَّ، سَمِعْتُ يُوْسُفَ بْنَ مُوسَى الْمَرْوُوزِيَّ يَقُولُ: «كُنْتُ بِالْبَصْرَةِ فِي جَامِعِهَا، إِذْ سَمِعْتُ مُنَادِيًا يُنَادِي: يَا أَهْلَ الْعِلْمِ، قَدْ قَدِمَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيُّ، فَقَامُوا فِي طَلَبِهِ، وَكُنْتُ مَعَهُمْ، فَرَأَيْنَا رَجُلًا شَابًّا، يُصَلِّيْ خَلْفَ الْأُسْطُوَانَةِ.

فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ، أَحَدَقُوا بِهِ، وَسَلَّوْهُ أَنْ يَعْقِدَ لَهُمْ مَجْلِسَ الْإِمْلَاءِ، فَأَجَابَهُمْ.

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ اجْتَمَعَ قَرِيبٌ مِنْ كَذَا كَذَا أَلْفٍ فَجَلَسَ لِلْإِمْلَاءِ وَقَالَ: يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ، أَنَا شَابٌّ وَقَدْ سَأَلْتُمُونِي أَنْ أُحَدِّثْكُمْ، وَسَأُحَدِّثْكُمْ بِأَحَادِيثَ عَنْ أَهْلِ بَلَدِكُمْ تَسْتَفِيدُونَ الْكُلَّ.

ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ جَبَلَةَ بْنِ أَبِي رَوَّادٍ بَلَدِيُّكُمْ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ مَنْصُورٍ وَغَيْرِهِ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

ثُمَّ قَالَ: لَيْسَ هَذَا عِنْدَكُمْ، إِنَّ مَا عِنْدَكُمْ عَنْ غَيْرِ مَنْصُورٍ، عَنْ سَالِمٍ. وَأَمَلَى مَجْلِسًا عَلَى هَذَا النَّسْقِ يَقُولُ فِي كُلِّ حَدِيثٍ: رَوَى شُعْبَةُ هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدَكُمْ كَذَا، فَأَمَّا مِنْ رِوَايَةِ فَلَانٍ، فَلَيْسَ عِنْدَكُمْ، أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ.

قَالَ يُونُسُ: وَكَانَ دُخُولِي الْبَصْرَةَ أَيَّامَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي الشَّوَّارِبِ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ الْوَرَّاقُ: قَرَأَ عَلَيْنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ كِتَابَ (الهِبَةِ)، فَقَالَ: لَيْسَ فِي هِبَةٍ وَكِيعٍ إِلَّا حَدِيثَانِ مُسْنَدَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ.

وَفِي كِتَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ خَمْسَةٌ أَوْ نَحْوُهُ. وَفِي كِتَابِي هَذَا خَمْسُ مِائَةِ حَدِيثٍ أَوْ أَكْثَرُ^(١).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٠٩ : ٤١١).

الاختبار الرابع - مناظرات وأسئلة دقيقة:

الأولى - مناظرة أبي بكر بن أبي شيبة:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنِ سَلَامٍ يَقُولُ: «حَضَرْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنَ أَبِي شَيْبَةَ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا يَقُولُ فِي مَجْلِسِهِ: نَاطَرَ أَبُو بَكْرٍ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فِي أَحَادِيثِ سُفْيَانَ، فَعَرَفَ كُلَّهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ، فَأَغْرَبَ عَلَيْهِ مَا تَتَى حَدِيثٌ.

فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ: ذَاكَ الْفَتَى الْبَازِلُ - وَالْبَازِلُ الْجَمْلُ الْمُسْنُ - إِلَّا أَنَّهُ يُرِيدُ هَا هُنَا الْبَصِيرُ بِالْعِلْمِ، الشَّجَاعُ»^(١).

الثانية - أسئلة دقيقة من إسحاق بن راهويه:

وكانوا يسألونه عن دقائق الأمور التي لا يكاد يعرفها أحد، قَالَ مُحَمَّدٌ: وَسَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الْمَدِينِيَّ بِالشَّاشِ زَمَنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي عَرَابَةَ يَقُولُ: «كُنَّا بَنِيْسَابُورَ عِنْدَ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهُوَيْه، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي الْمَجْلِسِ، فَمَرَّ إِسْحَاقُ بِحَدِيثٍ كَانَ دُونَ الصَّحَابِيِّ عَطَاءَ الْكَيْخَارَانِيَّ».

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٠٩ : ٤١١).

فَقَالَ إِسْحَاقُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَيْشَ كَيْخَارَان؟ فَقَالَ: «قَرِيَّةٌ بِالْيَمَنِ، كَانَ مُعَاوِيَةَ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بَعَثَ هَذَا الرَّجُلَ، وَكَانَ يُسَمِّيهِ أَبُو بَكْرٍ، فَأَنْسَيْتُهُ إِلَى الْيَمَنِ، فَمَرَّ بِكَيْخَارَان، فَسَمِعَ مِنْهُ عَطَاءٌ حَدِيثَيْنِ».

فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، كَأَنَّكَ شَهِدْتَ الْقَوْمَ»^(١).

الثالثة - أسئلة الذهلي له في جنازة:

قال أحمد بن حمدون: «رأيت محمد بن إسماعيل في جنازة سعيد بن مروان، ومحمد بن يحيى الذهلي يسأله عن الأسامي والكنى والعلل، ومحمد بن إسماعيل يمر فيه مثل السهم، كأنه يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]^(٢) فإذا كان الحديث لا يعرفه البخاري فهو ليس بحديث، يقول مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: «ذَا كَرِنِي أَصْحَابُ عَمْرِو بْنِ عَلِيٍّ الْفَلَاسِ بِحَدِيثٍ، فَقُلْتُ: لَا أَعْرِفُهُ، فَسَرُّوا بِذَلِكَ، وَصَارُوا إِلَى عَمْرِو، فَأَخْبَرُوهُ».

فَقَالَ: حَدِيثٌ لَا يَعْرِفُهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ لَيْسَ بِحَدِيثٍ»^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤١٥)، هدى الساري مقدمة فتح الباري ص: (٤٨٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٠).

وبعد هذه الاختبارات والمناظرات أذعن له العلماء قاطبة على إمامته، وتقدمه، وحفظه، ودقته، وإتقانه، فكانوا ينزلونه أعظم المنازل وأجلّها.

ومن ذلك: ما رواه فتح بن نوح النيسابوري قال: أتيت علي بن المديني فرأيت محمد بن إسماعيل جالساً عن يمينه، وكان إذا حدث التفت إليه مهابة له ^(١).

بل كان الرعب يدب على قلوب بعضهم إذا دخل عليهم، قال أبو عمرو الخفاف: «لو دخل من هذا الباب محمد بن إسماعيل وأنا أحدث ملئت منه رعباً» ^(٢).

بل كان سيد الحفاظ، وإمام الدنيا في الحديث الإمام أبو زرعة يهاب الإمام البخاري، يقول إبراهيم الخواص، مُستملي صدقة: «رَأَيْتُ أَبَا زُرْعَةَ كَالصَّبِيِّ جَالِسًا بَيْنَ يَدَيِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، يَسْأَلُهُ عَنْ عِلَلِ الْحَدِيثِ» ^(٣).

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري ص: ٨٣، تاريخ بغداد (١٨ / ٢)، تعليق التعليق ص: ٩.

(٢) هدى الساري مقدمة فتح الباري ص: ٨٥، تاريخ بغداد (٢ / ٢٨)، تعليق التعليق ص: ١٢.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٠٧).

ولم يكن ذلك فقط من أبي زرعة، بل حتى مسلمُ بنُ الحجاج صاحبُ صحيح مسلم كان بين يدي البخاري يسأله سؤال الصبي ^(١).

فهل بعد هذه القصص التي هي نقطة من بحر حفظ الإمام البخاري وإتقانه وذكائه وبراعته، كلام لمتكلم، أو طعن لطاعن؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.



(١) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٠٧).

فقه الإمام البخاري

للإمام البخاري في صحيحه تبويبات تُجَلِّي عظيم فقهه، ودقيق فهمه لكتاب الله ولسنة النبي ﷺ، بل وكذلك للسان العرب، وقد أعمل الشراح أنظارهم وكدوا أذهانهم في استخراج النكت الفقهية التي يصرح بها حيناً ويلمح بها حيناً آخر في تراجمه على الأحاديث، وقد أظهر في هذا الجانب تميزاً أثنى عليه المحققون، واغترف من معينه الراسخون علماً جمّاً، ومن شهد له بالإمامة في الفقه:

أبو مصعب الزهري، الإمام الثقة، شيخ دار الهجرة أحمد بن أبي بكر القاسم المدني الفقيه قاضي المدينة.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: «سَمِعْتُ حَاشِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: قَالَ لِي أَبُو مُصْعَبٍ الزُّهْرِيُّ: مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَفْقَهُ عِنْدَنَا وَأَبْصَرُ بِالْحَدِيثِ مِنْ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ».

فَقِيلَ لَهُ: جَاوَزْتَ الْحَدَّ.

فَقَالَ لِلرَّجُلِ: «لَوْ أَذْرَكَتَ مَالِكًا، وَنَظَرْتَ إِلَى وَجْهِهِ وَوَجْهِ مُحَمَّدٍ بِنِ
إِسْمَاعِيلَ، لَقُلْتَ: كِلَاهُمَا وَاحِدٌ فِي الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ»^(١).

**شهادة نعيم بن حماد أبو عبد الله المروزي الخزاعي الأعور المعروف
بالفارض:**

قَالَ صَالِحُ بْنُ مِسْمَارٍ الْمَرْوَزِيُّ: سَمِعْتُ نَعِيمَ بْنَ حَمَّادٍ يَقُولُ: «مُحَمَّدُ بْنُ
إِسْمَاعِيلَ فَقِيهٌ هَذِهِ الْأُمَّةِ»^(٢).

شهادة قتيبة بن سعيد:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْهَمْدَانِيُّ: «كُنَّا عِنْدَ قُتَيْبَةَ بْنِ سَعِيدٍ، فَجَاءَ رَجُلٌ
شَعْرَانِيٌّ يُقَالُ لَهُ: أَبُو يَعْقُوبَ، فَسَأَلَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، فَنَكَسَ رَأْسَهُ،
ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ، نَظَرْتُ فِي الْحَدِيثِ، وَنَظَرْتُ فِي الرَّأْيِ،
وَجَالَسْتُ الْفُقَهَاءَ وَالزُّهَادَ وَالْعُبَادَ، مَا رَأَيْتُ مُنْذُ عَقَلْتُ مِثْلَ مُحَمَّدِ بْنِ
إِسْمَاعِيلَ»^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٢٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤١٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٣١).

شهادة سليم بن مجاهد:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَسَمِعْتُ سَلِيمًا يَقُولُ: «مَا رَأَيْتُ بَعْضِي مُنْذُ سِتِّينَ سَنَةً أَفْقَهُ، وَلَا أَوْرَعَ، وَلَا أَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا، مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ إِسْمَاعِيلَ»^(١).

أهل المعرفة يُقدِّمون البخاريَّ على شيخه إسحاق:

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعِيدٍ بْنَ جَعْفَرٍ يَقُولُ: «لَمَّا مَاتَ أَحْمَدُ بْنُ حَرْبٍ النَّيْسَابُورِيُّ رَكِبَ مُحَمَّدٌ وَإِسْحَاقُ يُشِيعَانِ جِنَازَتَهُ. فَكُنْتُ أَسْمَعُ أَهْلَ الْمَعْرِفَةِ بِنَيْسَابُورٍ يَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: مُحَمَّدٌ أَفْقَهُ مِنْ إِسْحَاقٍ»^(٢).

شهادة أهل بغداد وهم في هذا الزمان كانوا أعلم أهل الأرض:

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْفَقِيهُ الدَّغُولِيُّ: كَتَبَ أَهْلُ بَغْدَادَ إِلَى الْبُخَارِيِّ:

الْمُسْلِمُونَ بِخَيْرٍ مَا بَقِيَتْ لَهُمْ وَلَيْسَ بَعْدَكَ خَيْرٌ حِينَ تُفْتَقَدُ^(٣)

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٤٩) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤١٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٣٤) .

من أسرار عظمته

تزكية نفسه

من أعظم أسباب الفلاح والنجاح في الحياة قبل الممات تزكية النفوس، يقول رب العزة والجلال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّهَا﴾ [الشمس: ٩]. ويقول ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤]، وكان من دعاء رسول الله ﷺ طلب التزكية للنفس ففي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم فقال: «كان رسول الله ﷺ يَأْمُرُنَا أَنْ نَقُولَ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا...»^(١)، وقد كان الإمام البخاري من المهتمين بتزكية نفسه اهتماماً بالغاً، وهذه جملة من المواقف التي تدل على حرصه وسعيه لتزكية نفسه:

كان لا يعمل عملاً إلا بنية:

من دقائق صفات المتقين الصادقين محاسبتهم أنفسهم ليس على الذنوب فحسب؛ بل حتى على الحركات والسكنات والخطرات، وهذا من أعلى درجات التقوى، فلا يصدر منهم عمل إلا ولهم فيه نية خير، وإلا أعرضوا

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»؛ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، بَابُ التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يُعْمَلْ (٨ / ٨١) برقم: (٢٧٢٢).

عنه، وحالهم كما قال عنهم ربهم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وقد كان الصحابة لهم السبق المعلى في ذلك فهذا إمام العلماء معاذ يقول: «إني لأحتسب في نوّمتي كما أحتسب في قومتي».

وتلك هي حالة المقربين الذين انقلبت المباحات في حقهم إلى طاعات وقربات بالنية، فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل أعمالهم راجحة. وماذا عن أميرنا الإمام أبي عبد الله في هذا الباب؟! لقد كان له الحظ الأوفر من محاسبته لنفسه، واسمع إلى هذه القصة ففيها والله الذي لا إله إلا الله العجب العجائب، يقول وراقه محمد بن أبي حاتم: «رأيت الإمام البخاري استلقى على قفاه يوماً - ونحن بفربر - في تصنيفه كتاب (التفسير)، وأتعب نفسه ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث».

فقلت له: إني أراك تقول: إني ما أثبت^(١) شيئاً بغير علم قط منذ عقلت. فما الفائدة في الاستلقاء؟

(١) في تاريخ بغداد: ما أتيت.

قال: أتعبنا أنفسنا اليوم، وهذا ثغر من الثغور، خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو، فأحببت أن أستريح، وأخذ أهبة، فإن غافصنا^(١) العدو كان بنا حراك»^(٢).

بذله للعلم بدون مقابل:

من صفات الأنبياء التي ذكرها الله في كتابه في مواضع عديدة، ولا تكاد تخلو قصة نبي منها، أنهم لا يطلبون على دعوتهم وتبليغهم رسالة ربهم أي أجر من الأجور المادية أو النفعية من أقوامهم، فما يرسل الله نبياً من أنبيائه إلا ويكون من أولى الوصايا الربانية ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، ويقول رب العزة والجلال لنبيه محمد ﷺ: ﴿قَدْ لَأَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

قال مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: «سَمِعْتُ سُلَيْمَ بْنَ مُجَاهِدٍ يَقُولُ: مَا بَقِيَ أَحَدٌ يَعْلَمُ النَّاسَ الْحَدِيثَ حِسْبَةً غَيْرُ مُحَمَّدٍ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، وَرَأَيْتُ سُلَيْمَ بْنَ مُجَاهِدٍ يَسْأَلُ

(١) أي: فاجأنا، وأخذنا على غرة منا.

(٢) تاريخ بغداد (٢ / ١٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (١ / ٧٦ / ١)، وتهذيب الكمال: (١٧٠)، وطبقات السبكي: (٢ / ٢٢٦)، ومقدمة الفتح: (٤٨١)، سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤٤٤).

أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يُحَدِّثَهُ كُلَّ يَوْمٍ بِثَلَاثَةِ أَحَادِيثَ، وَيُبَيِّنَ لَهُ مَعَانِيَهَا وَتَفَاسِيرَهَا وَعِلَلَهَا.

فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ قَدَرَ مَقَامِهِ.

وَكَانَ أَقَامَ فِي تِلْكَ الدَّفْعَةِ جُمُعَةً^(١).

وكيف لا يكون كذلك وقد زهد في الدنيا ورغب في الآخرة، فلم يبيع دينه بدنياءه، فلم يبيع ولا يشتري، ولم يكتب سلطاناً ولا أميراً في حاجة من حوائج الدنيا.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: «وَضِيفَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فِي بُسْتَانٍ لَهُ، وَضِيفْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا جَلَسْنَا أَعْجَبَ صَاحِبَ الْبُسْتَانِ بُسْتَانُهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ عَمِلَ مَجَالِسَ فِيهِ، وَأَجْرَى الْمَاءَ فِي أَنْهَارِهِ.

فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، كَيْفَ تَرَى؟

فَقَالَ: هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا.

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤٤٩).

قَالَ: وَكَانَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ غَرِيمٌ قَطَعَ عَلَيْهِ مَا لَا كَثِيرًا، فَبَلَغَهُ أَنَّهُ قَدِمَ أَمْلٍ،
وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِغَرَبَرٍ، فَقُلْنَا لَهُ: يَنْبَغِي أَنْ تَعْبُرَ وَتَأْخُذَهُ بِإِلَافِكَ.
فَقَالَ: لَيْسَ لَنَا أَنْ نُرْوِعَهُ.

ثُمَّ بَلَغَ غَرِيمُهُ مَكَانَهُ بِغَرَبَرٍ، فَخَرَجَ إِلَى خَوَارِزَمَ، فَقُلْنَا: يَنْبَغِي أَنْ تَقُولَ
لِأَبِي سَلَمَةَ الْكُشَانِيِّ عَامِلٍ أَمْلٍ لِيَكْتُبَ إِلَيَّ خَوَارِزَمَ فِي أَخْذِهِ، وَاسْتَخْرَاجِ
حَقِّكَ مِنْهُ.

فَقَالَ: إِنْ أَخَذْتُ مِنْهُمْ كِتَابًا طَمَعُوا مِنِّي فِي كِتَابٍ، وَلَسْتُ أُبَيِّعُ دِينِي
بِدُنْيَايَ.

فَجَهَدْنَا، فَلَمْ يَأْخُذْ حَتَّى كَلَّمَنَا السُّلْطَانُ عَنْ غَيْرِ أَمْرِهِ.
فَكَتَبَ إِلَيَّ وَإِلَى خَوَارِزَمَ.

فَلَمَّا أُبْلِغَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ذَلِكَ، وَجَدَ وَجْدًا شَدِيدًا.

وَقَالَ: لَا تَكُونُوا أَشْفَقَ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي.

وَكَتَبَ كِتَابًا، وَأَرْدَفَ تِلْكَ الْكُتُبَ بِكُتُبٍ، وَكَتَبَ إِلَيَّ بَعْضُ أَصْحَابِهِ
بِخَوَارِزَمَ أَنْ لَا يُتَعَرَّضَ لَغَرِيمِهِ إِلَّا بِخَيْرٍ.

فَرَجَعَ غَرِيمُهُ إِلَى أُمِّهِ، وَقَصَدَ إِلَى نَاحِيَةِ مَرَوْ.

فَاجْتَمَعَ التُّجَّارُ، وَأَخْبَرَ السُّلْطَانُ بِأَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ خَرَجَ فِي طَلَبِ غَرِيمٍ لَهُ.

فَأَرَادَ السُّلْطَانُ التَّشْدِيدَ عَلَى غَرِيمِهِ، وَكَرِهَ ذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، وَصَالَحَ غَرِيمَهُ عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُ كُلَّ سَنَةٍ عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ شَيْئًا يَسِيرًا.

وَكَانَ الْمَالُ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا.

وَلَمْ يَصِلْ مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ إِلَى دِرْهَمٍ، وَلَا إِلَى أَكْثَرِ مِنْهُ.

قَالَ: «وَسَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: مَا تَوَلَّيْتُ شِرَاءَ شَيْءٍ وَلَا بَيْعَهُ قَطُّ.

فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ وَقَدْ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ؟

قَالَ: لِمَا فِيهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ وَالتَّخْلِيضِ، فَخَشِيتُ إِنْ تَوَلَّيْتُ أَنْ أَصِيرَ بَغِيرِي.

قُلْتُ: فَمَنْ كَانَ يَتَوَلَّى أَمْرَكَ فِي أَصْفَارِكَ وَمُبَايَعَتِكَ؟

قَالَ: كُنْتُ أَكْفَى ذَلِكَ» ^(١).

وهكذا كان سلف الأمة يخافون أشد الخوف من أن يكون دينهم وعلمهم وسيلة لشراء دنياهم، وقد ضربوا لنا أروع الأمثال، ومن ذلك أن محمداً بن يوسف الأصبهاني كان لا يشتري خبزه من خبّاز واحد، يقول: لعلمهم يعرفوني، ولكن إذا جئته لأول وهلة لا يعرف أي فلان الذي يُسمع عنه، فتقع لي المحاباة، فأكون ممن يعيش بدينه ^(١).

وعن رجاء بن أبي سلمة: أن ابن محيريز دخل على رجل من البزازين، فاشترى منه شيئاً فقال رجل للبزاز: أتدري من هذا؟ هذا ابن محيريز. فقام فقال: إنما جئنا نشترى بدرهمنا، ليس بديننا ^(٢).

زهده في الرئاسة والشهرة:

من أعظم أسباب الرفعة طلب ما عند الله، والبعد كل البعد عن الرئاسة وال الشهرة، وهذا من علامات الإخلاص، كما إن من أعظم ما يوجب سقوط العالم، ويصيبه في مقتل، ويفسد عليه إخلاصه: طلب الرئاسة، وحب الظهور والتعالي على عباد الله، وفي الحديث عن كعب بن مالك الأنصاري

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨ / ٢٣١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧ / ٢١٨)، شعب الإيمان (٧ / ٢٢٩)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٥ / ١٣٩)، المعرفة والتاريخ (٢ / ٣٦٤).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا ذُبَّانٍ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»^(١).

قال ابن رجب: «ومن يطلب بالعمل، والعلم، والزهد، الرئاسة على الخلق والتعاضم عليهم، وأن ينقاد الخلق ويخضعوا له ويصرفوا وجوههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه على العلماء، أو ليعلوا به عليهم ونحو ذلك، فهذا وعيده النار؛ لأن قصده التكبر على الخلق في نفسه محرم، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة، كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان. روى الترمذي في سننه من حديث كعب بن مالك: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٤ / ١٨٥) برقم: (٢٣٧٦) وأحمد في «مسنده» (٦ / ٣٣٧١) برقم: (١٦٠٢٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٠ / ٣٨٦) برقم: (١١٧٩٦)، والطبراني في «الكبير» (١٩ / ٩٦) برقم: (١٨٩) قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٤ / ٣٩٢) برقم: (٢٦٥٤)، والطبراني في «الكبير» (١٩ / ١٠٠) برقم: (١٩٩)، والحاكم في «مستدرکه» (١ / ٨٦) برقم: (٢٩٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٥٤).

وقد كان الإمام البخاري من أبعد الناس عن تلك الخصلة الذميمة، قال أحمد بن سلمة: دَخَلْتُ عَلَى الْبُخَارِيِّ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مَقْبُولٌ بِخُرَاسَانَ خُصُوصًا فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ، وَقَدْ لَجَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ حَتَّى لَا يَقْدِرَ أَحَدٌ مِنَّا أَنْ يُكَلِّمَهُ فِيهِ، فَمَا تَرَى؟

فَقَبِضَ عَلَى لِحْيَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَفْوُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَرِدِ الْمَقَامَ بِنِسَابٍ وَرَاشِرًا وَلَا بَطْرًا، وَلَا طَلَبًا لِلرَّئَاسَةِ، وَإِنَّمَا أَتَيْتُ عَلَى نَفْسِي فِي الرَّجُوعِ إِلَى وَطَنِي لِغَلَبَةِ الْمُخَالِفِينَ، وَقَدْ قَصَدَنِي هَذَا الرَّجُلُ حَسَدًا لَمَّا آتَانِي اللَّهُ لَا غَيْرَ.

ثُمَّ قَالَ لِي: يَا أَحْمَدُ، إِنِّي خَارِجٌ غَدًا لِتَخَلُّصُوا مِن حَدِيثِهِ لِأَجَلِي ^(١).

وكان ربما ساومه بعضهم ليرجع عن الحق الذي يراه مقابل أن يرجع الناس إليه، ظنًا منهم أنه يطلب ذلك، فهل تراه يقبل عرضهم؟! حاشاه، قال الفرهباني: قيل لمحمد بن إسماعيل: ترجع عما قلت ليعود الناس إليك. فقال: لا حاجة لي فيهم ^(٢).

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٢ / ٩٤)، سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٥٩).

(٢) المعلم بشيوخ البخاري ومسلم (ص: ٢١).

وهذا يحيى بن سعيد يقول عندما انفض الناس عن الإمام البخاري فقالوا له بعد ذلك: ترجع عن هذا القول، حتى نعود إليك؟
 قَالَ: لَا أَفْعَلُ إِلَّا أَنْ تَحِيُّوْا بِحُجَّةٍ فِيمَا تَقُولُونَ أَقْوَى مِنْ حُجَّتِي.
 وَأَعْجَبَنِي مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ثَبَاتُهُ ^(١).

استواء المدح والذم من العامة:

ومن علامات الإخلاص عدم الاكتراث بمدح الناس أو ذمهم، فمن كان يرجو أجره من الله فلا عليه من مدح ومن ذم، وهذا ما قرره ذو النون فقال: «ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية العمل في الأعمال، واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة» ^(٢).

وقد كان للإمام البخاري النصيب الأوفى والمحل الأعلى في ذلك قال إبراهيم بن مغفل: «رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أُخْرِجَ فِيهِ مِنْ بُخَارَى، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، كَيْفَ تَرَى هَذَا الْيَوْمَ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي نُثِرَ عَلَيْكَ فِيهِ مَا نُثِرَ؟

فَقَالَ: لَا أَبْأَلِي إِذَا سَلِمَ دِينِي» ^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٤٥٤/١٢).

(٢) الغنية لطالبي طريق الحق للجيلاني (١١٢/٢).

(٣) المعلم بشيوخ البخاري ومسلم (ص: ٢٥)، سير أعلام النبلاء (٤٦٣/١٢).

ورعه:

إن الورع من ثمار خشية رب العالمين، وهو من صفات السابقين المقربين، ومن خير ما يتدين به العبد لمولاه الملك الحق المبين، ففي حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «.. خير دينكم الورع»^(١)، وأعبد الناس هم الورعون كما في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ»^(٢).

وقد كان للإمام البخاري القدر المعلى من ذلك فقد كان من أروع الناس، قال سليم بن مجاهد: «ما رأيت بعيني منذ ستين سنة أفقه، ولا أروع، ولا أزهد في الدنيا من الإمام البخاري»^(٣).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٩ / ٤٧٣) برقم: (٣٦٧٥٠)، والبخاري في «مسنده» (٧ / ٣٧١) برقم: (٢٩٦٩)، والطبراني في «الأوسط» (٤ / ١٩٦) برقم: (٣٩٦٠)، والحاكم في «مستدركه» (١ / ٩٢) برقم: (٣١٣)، وقال: صحيح على شرطهما. وقال المنذري في الترغيب (١ / ٩٣): حسن. وله شواهد كثيرة لعله يصح بها.

(٢) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٤ / ١٤٠) برقم: (٢٣٠٥)، وابن ماجه في «سننه» (٥ / ٢٨٥) برقم: (٤١٩٣)، وأحمد في «مسنده» (٢ / ١٧٠٤) برقم: (٨٢١٠)، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤ / ٢٤٠).

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤٤٩).

بل كان يُشَبَّه في الورع والصدق بعمر بن الخطاب في الصحابة قال قتيبة: «مثل البخاري عند الصحابة في صدقه وورعه كما كان عمر في الصحابة»^(١).

وللإمام البخاري مواقف تدل على منزلته الرفيعة، ومكانته المنيفة في الورع عن المحرمات، واتقاء الشبهات، وإليك مقتطفات منها:
من قصص ورعه العجيبة:

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: «رَكَبْنَا يَوْمًا إِلَى الرَّمِي، وَنَحْنُ بِفَرَبُرٍ، فَخَرَجْنَا إِلَى الدَّرَبِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْفُرْصَةِ.

فَجَعَلْنَا نَرْمِي، وَأَصَابَ سَهْمُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَتَدَ الْقَنْطَرَةُ الَّذِي عَلَى نَهْرِ وَرَادَةَ، فَانْشَقَّ الْوَتْدُ.

فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ نَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ، فَأَخْرَجَ السَّهْمَ مِنَ الْوَتْدِ، وَتَرَكَ الرَّمِيَّ.

وَقَالَ لَنَا: ارْجِعُوا.

وَرَجَعْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَنْزِلِ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا جَعْفَرٍ، لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ تَقْضِيهَا؟

(١) المصدر السابق (١٢ / ٤٣١).

قُلْتُ: أَمْرُكَ طَاعَةٌ.

قَالَ: حَاجَةٌ مُهِمَّةٌ، وَهُوَ يَتَنَفَّسُ الصُّعْدَاءَ.

فَقَالَ لِمَنْ مَعَنَا: اذْهَبُوا مَعَ أَبِي جَعْفَرٍ حَتَّى تُعِينُوهُ عَلَى مَا سَأَلْتُهُ.

فَقُلْتُ: أَيَّةُ حَاجَةٍ هِيَ؟

قَالَ لِي: تَضْمَنُ قَضَاءَهَا؟

قُلْتُ: نَعَمْ، عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ.

قَالَ: يَنْبَغِي أَنْ تَصِيرَ إِلَى صَاحِبِ الْقَنْطَرَةِ، فَتَقُولَ لَهُ: إِنَّا قَدْ أَخْلَلْنَا بِالْوَتِدِ، فَحُجِّبْ أَنْ تَأْذَنَ لَنَا فِي إِقَامَةِ بَدْلِهِ، أَوْ تَأْخُذَ ثَمَنَهُ، وَتَجْعَلَنَا فِي حِلٍّ مِمَّا كَانَ مِنَّا، وَكَانَ صَاحِبَ الْقَنْطَرَةِ حُمَيْدُ بْنُ الْأَخْضَرِ الْفِرَبْرِئِ.

فَقَالَ لِي: أَبْلُغْ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: أَنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّا كَانَ مِنْكَ، وَقَالَ جَمِيعُ مُلْكِي لَكَ الْفِدَاءَ، وَإِنْ قُلْتُ: نَفْسِي، أَكُونُ قَدْ كَذَبْتُ غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَحِبُّ أَنْ تَحْتَشِمْنِي فِي وَتِدٍ أَوْ فِي مُلْكِي.

فَأَبْلَغْتُهُ رِسَالَتَهُ، فَتَهَلَّلَ وَجْهُهُ، وَاسْتَنَارَ، وَأَظْهَرَ سُرُورًا، وَقَرَأَ فِي ذَلِكَ
الْيَوْمِ عَلَى الْغُرَبَاءِ نَحْوًا مِنْ خَمْسِ مِائَةِ حَدِيثٍ، وَتَصَدَّقَ بِثَلَاثِ مِائَةِ
دِرْهَمٍ»^(١).

ورعه في تركه للبيع والشراء:

فقد كان لا يبيع ولا يشتري بنفسه؛ بل يوكل من يشتري له ويبيع خشية
من الوقوع في الحرج بالزيادة في الأثمان أو النقصان، ولكثرة مواطن الشبه
في المعاملات: قال وراقه محمد بن أبي حاتم: وَسَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: مَا
تَوَلَّيْتُ شِرَاءَ شَيْءٍ وَلَا بَيْعَهُ قَطُّ.

فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ وَقَدْ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ؟

قَالَ: لِمَا فِيهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ وَالتَّخْلِيطِ، فَخَشِيتُ إِنْ تَوَلَّيْتُ أَنْ
أُسْتَوِيَ بِغَيْرِي.

قُلْتُ: فَمَنْ كَانَ يَتَوَلَّى أَمْرَكَ فِي أَسْفَارِكَ وَمُبَايَعَتِكَ؟

قَالَ: كُنْتُ أَكْفَى ذَلِكَ»^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٤٣ : ٤٤٤).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١ / ٤٧٩)، سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٤٦).

ورعه من السخرية بالناس ولو بابتسامة:

ومن عجيب ورعه ما رواه عنه وراقه محمد بن أبي حاتم: «وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لِأَبِي مَعْشَرٍ الضَّرِيرِ: اجْعَلْنِي فِي حِلٍّ يَا أَبَا مَعْشَرٍ.

فَقَالَ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟

قَالَ: رَوَيْتُ يَوْمًا حَدِيثًا، فَظَرْتُ إِلَيْكَ، وَقَدْ أُعْجِبْتَ بِهِ، وَأَنْتَ تُحَرِّكُ رَأْسَكَ وَيَدَكَ، فَتَبَسَّمْتُ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: أَنْتَ فِي حِلٍّ، رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ»^(١).

وأما ورعه في حفظ لسانه فكان آية من آيات الله:

فإن اللسان من أعظم آفات الإنسان التي توجب له الهلاك والنيران كما في الحديث عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَكْثَرُ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ»^(٢)، وحديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: «فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُوْأَخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! قَالَ: «ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٤).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ١٩٧) برقم: (١٠٤٦٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٢٤٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (١٠/ ٢٩٩).

يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»^(١).

كما أن حفظ اللسان ومراقبته وصيانتته عن الحرام والهديان من أعظم صفات المؤمنين الصادقين، والمتقين المقربين، خاصة إذا كان الإنسان محتاجاً إلى بيان أحوال الناس من أجل الحفاظ على سنة خير المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ضرب لنا الإمام البخاري أروع الأمثال والنماذج في المحافظة على لسانه وَقَالَ بَكْرُ بْنُ مُنِيرٍ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْبُخَارِيَّ يَقُولُ: أَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَلَا يَحَاسِبَنِي أَنِّي اغْتَبْتُ أَحَدًا.

قال الذهبي معلقاً على ذلك: «صَدَقَ رَحْمَةُ اللَّهِ وَمَنْ نَظَرَ فِي كَلَامِهِ فِي الْجَرَحِ وَالتَّعْدِيلِ عَلِمَ وَرَعَهُ فِي الْكَلَامِ فِي النَّاسِ، وَإِنْصَافَهُ فِيمَنْ يُضَعِّفُهُ، فَإِنَّهُ أَكْثَرَ مَا يَقُولُ: مُنْكَرُ الْحَدِيثِ، سَكَتُوا عَنْهُ، فِيهِ نَظَرٌ، وَنَحْوُ هَذَا. وَقَلَّ أَنْ يَقُولَ: فَلَانٌ كَذَّابٌ، أَوْ كَانَ يَصْعُ الْحَدِيثَ.

حَتَّى إِنَّهُ قَالَ: إِذَا قُلْتُ: فَلَانٌ فِي حَدِيثِهِ نَظَرٌ، فَهُوَ مُتَّهَمٌ وَاهٍ.

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (١ / ٤٥٣) برقم: (٢٢٢٣ / ٥)، والترمذي في «جامعه» (٤ / ٣٦٢) برقم: (٢٦١٦)، وابن ماجه في «سننه» (١ / ٥٢) برقم: (٧٢)، وأحمد في «مسنده» (١٠ / ٥١٦٤) برقم: (٢٢٤٣٩) قال الترمذي: حسن صحيح.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: لَا يُحَاسِبُنِي اللَّهُ أَنِّي اغْتَبْتُ أَحَدًا، وَهَذَا هُوَ وَاللَّهُ غَايَةُ
الْوَرَعِ^(١).

وهذه محاسبة لا مثيل لها إذ من يستطيع أن يجزم هذا الجزم إلا من كان
يستحضر كل لحظة أنه ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وفي قوله
ذلك دلالة على حياة قلبه، وصفاء روحه، وأنه كان وقافاً لنفسه، مترصداً
للسان من أن يقع في أعراض الناس.

وقد بين لهم ما قد يستشكله بعض الناس من كلامه في الرجال فقال
قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ الْوَرَّاقُ: سَمِعْتُهُ -يَعْنِي: الْبُخَارِيَّ- يَقُولُ: «لَا يَكُونُ
لِي خَصَمٌ فِي الْآخِرَةِ، فَقُلْتُ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَنْقِمُونَ عَلَيْكَ فِي كِتَابِ
(التَّارِيخِ) وَيَقُولُونَ: فِيهِ اغْتِيَابُ النَّاسِ، فَقَالَ: إِنَّمَا رَوَيْنَا ذَلِكَ رِوَايَةً لَمْ
نَقُلْهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِنَا، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِئْسَ مَوْلَى الْعَشِيرَةِ»^(٢) يَعْنِي:
حَدِيثُ عَائِشَةَ^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٤١).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٨ / ١٣) برقم: (٦٠٣٢)، ومسلم في «صحيحه»
(٨ / ٢١) برقم: (٢٥٩١).

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤٣٩).

خشيتته من الله أن لا يكون قال ما يراه حقًا:

من أسرار عظمتة، تعظيمه لربه وخشيتته منه، فكان يقول الحق طلبًا لرضا مولاه ولو كان في ذلك أذية له، أو إضرار، أو كيد، ولا عجب فهذا حال العلماء الذين قال الله عنهم أنهم يخشون الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، ولن يمنعهم من قول الحق مخالفة البشر كلهم، فهدفهم هو مرضاة الله، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [فاطر: ٢٨]، ورضا الأمة عن البخاري وصحيحه يدل على أن البخاري لم يكن ممن يطلب رضا الناس بسخط الله، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ التَّمَسَّ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ»^(١)، ولعل في هذا الموقف ما يجلي لنا هذه الصفة العظيمة التي اتصف بها الإمام البخاري عندما شغب عليه شيخه الذهلي وكاد له خرج البخاري من بلده إلى مرو، فاستقبله ثلة من العلماء، وكان

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٤ / ٢١٣) برقم: (٢٤١٤) من حديث عائشة، وابن حبان في «صحيحه» (١ / ٥١٠) برقم: (٢٧٦) وجوده ابن مفلح في الآداب الشرعية (١ / ١٦٤) وصححه ابن حجر على شرط الشيخين في الأمالي المطلقة (١١٩).

منهم أحمد بن سيار فقال له أحمد: «يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، نَحْنُ لَا نَخَالِفُكَ فِيمَا تَقُولُ، وَلَكِنَّ الْعَامَّةَ لَا تَحْمِلُ ذَا مِنْكَ.

فَقَالَ الْبُخَارِيُّ: إِنِّي أَخْشَى النَّارَ، أَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ أَعْلَمُهُ حَقًّا أَنْ أَقُولَ غَيْرَهُ.

فَانْصَرَفَ عَنْهُ أَحْمَدُ بْنُ سَيَّارٍ»^(١).



(١) المعلم بشيوخ البخاري ومسلم (ص: ٢٣)، سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٦٢).

من أسرار عظمته

اهتمامه بجسده وصحته

كما أن الاهتمام بالروح وتزكيتها من أهم المهمات فكذلك الاهتمام بالجسد؛ لأنه الوسيلة لبلوغ مرضاة الله ف«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»^(١)، فبالجسد القوي يقوم سوق الجهاد في سبيل الله، ويطيل المتعهد في قيام الليل الذي هو أحب القيام إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وبه يستطيع الرحلة في طلب الحديث، وقد كان البخاري مهتمًا بصحته وقوته ولياقته ومما يدل على ذلك أمور:

١- رحلاته في طلب العلم التي قطع فيها قرابة ٣٠ ألف كيلو متر، ولا يكون ذلك إلا من قوي الجسد.

٢- أنه كان إذا مشى مع أصحابه أو طلابه لا يسبقه أحد كما يقول وراقه^(٢)، ولا شك أن هذا لا يكون إلا لشخص قد بلغ من اللياقة مبلغها.

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨ / ٥٦) برقم: (٢٦٦٤).

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤٤٤).

٣- أنه كان من أمهر الرماة، قال: كان الإمام البخاري يركب إلى الرمي كثيراً، فما أعلمني رأيته في طول ما صحبته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين، بل كان يصيب الهدف في كل ذلك ^(١).

٤- أنه كان يشاركهم في البناء كما في الرباط الذي شاركهم في بناءه، وهذا لا يكون إلا للأقوياء.

وهذا يدل على فقه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ وإبرازه لجانب التكامل والتوازن الذي في هذا الدين بمثل هذا البرنامج العملي الذي كان يجسد تلك السمة في الشريعة الإسلامية بلا غلو ولا جفا.



(١) الوافي بالوفيات للصفدي (١٤٩/٢).

من أسرار عظمتة

كريم أخلاقه

ومن أسرار عظمة الإمام البخاري صفة لا تنال العظمة التامة إلا بها، إنها تلك الصفة التي كان رسول الله ﷺ، متصفاً بها على أكمل وجه وهي ﴿وَأَنَّكَ لَ عَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. هذه الصفة التي قال عنها النبي ﷺ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»^(١). وقال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُهَا، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»^(٢).

فكمال الأخلاق من أكبر أسرار العظمة، ولم يكن الإمام الذي قد عاش مع السنة النبوية، وحفظ تلك التفاصيل الدقيقة عن أخلاق رسول الله ﷺ أن يكون بمنأى عنها، بل كان متصفاً بها على أكمل وجه، كيف

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤ / ٤٠٠) برقم: (٤٧٩٩)، والترمذي في «جامعه» (٣ / ٥٣٥) برقم: (٢٠٠٢)، وأحمد في «مسنده» (١٢ / ٦٧٠٢) برقم: (٢٨١٤٢)، وابن جبان في «صحيحه» (٢ / ٢٣٠) برقم: (٤٨١)، قال الترمذي: حسن صحيح. وقال العجلوني في كشف الخفاء (١ / ٤٧): حسن أو صحيح.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣ / ١٤١٧) برقم: (٦٨٥٠) من حديث أبي ثعلبة، وابن جبان في «صحيحه» (٢ / ٢٣٥) برقم: (٤٨٥)، وصححه البوصيري في إتحاف الخيرة (١١ / ٦).

أسرار عظمة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ

لا وقد ألف كتابا أفرد فيه أدب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخلاقه؟! وهذا حال المحدثين، كانوا يتمثلون سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهديه في كل شؤونهم، ويقتدون به في كل أمورهم فاكسبوا هذه الرفعة وهذه العظمة التي قلما تكون لشخص، ولا عجب فإنه كلما قرأ الإنسان لشخص تأثر بسيرته وحياته وأخلاقه، فقل لي لمن تقرأ، وبمن تهتم، وتعجب، أقول لك من تكون.

فالمحدثون ليس لهم همٌّ إلا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شهدت رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فماذا سيكون حالهم؟!

أهل الحديث هم أهل النبي وإن

لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا

فماذا كان من كريم أخلاق الإمام البخاري، وجميل خصاله؟! سنذكر في هذه العجالة نبذاً يسيرة من تلك الأخلاق الفاضلة العظيمة:

سخاؤه وكرمه:

ضرب لنا أروع الأمثلة في السخاء والكرم يقول وراقه: وكان يتصدق بالكثير، ثم كان يتفقد أهل الحديث المفاليس الذي تفرغوا لأحاديث النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيأخذ بيد صاحب الحاجة منهم، فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقل وأكثر، وكل ذلك وهو لا يُشعر أحداً بذلك.

وكان لا يفارقه كيسه لكي يكرم أهل الحديث أهل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورأيتُه ناول رجلاً مراراً صرة فيها ثلاث مائة درهم - وذلك أن الرجل أخبرني بعدد ما كان فيها من بعد - فأراد أن يدعو، فقال له أبو عبد الله: ارفق، واشتغل بحديث آخر كيلا يعلم بذلك أحد^(١).

تواضعه في خدمة الدين:

ما ارتفع من ارتفع من هذه الأمة إلا بتواضعه لربه، وما انخفض من انخفض إلا بتكبره على ربه، وذلك لأن الله قضى بأن الرفعة لا تكون إلا بقدر التواضع فلما كان رسولنا من أكثر العباد تواضعاً لرب العباد رفعه الله إلى أعلى الدرجات في هذه الدنيا والآخرة، ففي الحديث: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً يَرْفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً»^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤٥١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٥ / ٢٧٤) برقم: (٤١٧٦)، وأحمد في «مسنده» (٥ / ٢٣٤٤) برقم: (١١٤٠٠)، وابن حبان في «صحيحه» (١٢ / ٤٩١) برقم: (٥٦٧٨)، والحاكم في «مستدرکه» (٤ / ٣١٤) برقم: (٧٩٧٢)، وحسنه ابن حجر في الأُمالي المطلقة (٨٩).

وماذا كان حال الإمام البخاري؟ لا شك أنه ما نال هذه المرتبة إلا بتواضعه لربه، وقد كان يقتفي خطوات رسول الله ﷺ، فعندما نزل النبي ﷺ المدينة مهاجراً من مكة، وبدأ ببناء المسجد، لم يترك صحابته منفردين بنيانه، بل كان من السباقين في بذل نفسه خدمةً لدين رب العالمين ففي الحديث: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، نَزَلَ فِي عُلُوِّ الْمَدِينَةِ، فِي حَيٍّ يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ،... قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ...، قَالَ: فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبَلَ الْمَسْجِدِ، قَالَ: وَجَعَلُوا عِصَادَتَيْهِ حِجَارَةً، قَالَ: جَعَلُوا يَنْقُلُونَ ذَاكَ الصَّخْرَ وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُمْ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَةِ فَانْصُرِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ»^(١).

وهكذا سار الإمام البخاري على خلق حبيبه رسول الله ﷺ، فكان يبذل نفسه في بناء الأوقاف، قال وراقه: كنا بفرب و كان أبو عبد الله يبني رباطاً مما يلي بخارى، فاجتمع بشر كثير يعينونه على ذلك، وكان ينقل اللبن، فكنت أقول له: يا أبا عبد الله، إنك تكفى ذلك. فيقول: هذا الذي ينفعني. قال: وكان ذبح لهم بقرة، فلما أدركت القدور دعا الناس إلى الطعام فكان معه مائة نفس أو أكثر، ولم يكن علم أنه يجتمع ما اجتمع، وكنا

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١ / ٥٦) برقم: (٢٣٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أخرجنا معه من فربز خبزاً بثلاثة دراهم، وكان الخبز إذ ذاك خمسة أمان بدرهم، فألقيناه بين أيديهم فأكل جميع من حضر، وفضلت أرغفة صالحة، وقال: وكان قليل الأكل جداً، كثير الإحسان إلى الطلبة، مفرط الكرم ^(١).

فهكذا هي السنة النبوية يا كرام تفعل الأفعال في أخلاق الرجال، وتنشئ جيلاً عظيم المبادئ والقيم، نبيل الخصال والقيم.

عفوه وصفحه:

وَكَانَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ غَرِيمٌ قَطَعَ عَلَيْهِ مَا لَا كَثِيرًا، فَبَلَغَهُ أَنَّهُ قَدِمَ أَمْلٌ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِفَرْبَرٍ، فَقُلْنَا لَهُ: يَنْبَغِي أَنْ تَعْبُرَ وَتَأْخُذَهُ بِمَالِكَ.
فَقَالَ: لَيْسَ لَنَا أَنْ نُرْوَعَهُ.

ثُمَّ بَلَغَ غَرِيمُهُ مَكَانَهُ بِفَرْبَرٍ، فَخَرَجَ إِلَى خَوَارِزَمَ، فَقُلْنَا: يَنْبَغِي أَنْ تَقُولَ لِأَبِي سَلَمَةَ الْكُشَانِيِّ عَامِلِ أَمْلٍ لِيَكْتَبَ إِلَيَّ خَوَارِزَمَ فِي أَخْذِهِ، وَاسْتَخْرَاجِ حَقِّكَ مِنْهُ.

فَقَالَ: إِنْ أَخَذْتُ مِنْهُمْ كِتَابًا طِمَعُوا مِنِّي فِي كِتَابٍ، وَلَسْتُ أَبِيعُ دِينِي بِدُنْيَايَ.

(١) فتح الباري لابن حجر (١ / ٤٨١).

فَجَهِدْنَا، فَلَمْ يَأْخُذْ حَتَّى كَلَمْنَا السُّلْطَانَ عَنْ غَيْرِ أَمْرِهِ.

فَكَتَبَ إِلَى وَالِي خَوَارِزَمَ.

فَلَمَّا أُبْلِغَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ذَلِكَ، وَجَدَ وَجَدًا شَدِيدًا.

وَقَالَ: لَا تَكُونُوا أَشْفَقَ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي.

وَكَتَبَ كِتَابًا، وَأَرْذَفَ تِلْكَ الْكُتُبَ بِكُتُبٍ، وَكَتَبَ إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ
بُخَوَارِزَمَ أَنْ لَا يُتَعَرَّضَ لَغَرِيمِهِ إِلَّا بِخَيْرٍ.

فَرَجَعَ غَرِيمُهُ إِلَى آمُلَ، وَقَصَدَ إِلَى نَاحِيَةِ مَرُو.

فَاجْتَمَعَ التُّجَّارُ، وَأُخْرِى السُّلْطَانُ بِأَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ خَرَجَ فِي طَلَبِ غَرِيمٍ لَهُ.

فَأَرَادَ السُّلْطَانُ التَّشْدِيدَ عَلَى غَرِيمِهِ، وَكَرِهَ ذَلِكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، وَصَالَحَ
غَرِيمَهُ عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُ كُلَّ سَنَةٍ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ شَيْئًا يَسِيرًا.

وَكَانَ الْمَالُ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا.

وَلَمْ يَصِلْ مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ إِلَى دِرْهَمٍ، وَلَا إِلَى أَكْثَرِ مِنْهُ^(١).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٤٦).

سماعته وطيب نفسه

يقول رسول ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا، سَمِعًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى»^(١).

فهل كان للبخاري حظ من هذا الحديث؟ يقول محمد بن أبي حاتم: «كَانَ حَمَلٌ إِلَى الْبُخَارِيِّ بِضَاعَةٌ أَنْفَذَهَا إِلَيْهِ ابْنُهُ أَحْمَدُ، فَاجْتَمَعَ بَعْضُ التُّجَّارِ إِلَيْهِ».

فَطَلَبُوهَا بِرَبْحِ خَمْسَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ.

فَقَالَ: أَنْصَرَفُوا اللَّيْلَةَ.

فَجَاءَهُ مِنَ الْعَدِ تَجَارٌ آخَرُونَ، فَطَلَبُوا مِنْهُ الْبِضَاعَةَ بِرَبْحِ عَشْرَةِ آلَافٍ. فَقَالَ: إِنِّي نَوَيْتُ بَيْعَهَا لِلَّذِينَ أَتَوْا الْبَارِحَةَ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»؛ كتاب البيوع، بَابُ السُّهُولَةِ وَالسَّهْوَةِ فِي الشَّرَاءِ وَالْبَيْعِ، وَمَنْ طَلَبَ حَقًّا فَلْيُطْلَبْهُ فِي عَفَافٍ (٣ / ٥٧) برقم: (٢٠٧٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٤٧ - ٤٤٨).

رفقه ولطفه:

قال وراقه: وكان أبو عبد الله يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة، وكان لا يوقظني في كل ما يقوم.

فقلت: أراك تُحْمَلُ على نفسك، ولم توقظني. قال: أنت شاب، ولا أحب أن أفسد عليك نومك ^(١).

قال: وأملى يوماً عليّ حديثاً كثيراً، فخاف ملائي، فقال: طب نفساً، فإن أهل الملاهي في ملاهيهم، وأهل الصناعات في صناعاتهم، والتجار في تجاراتهم، وأنت مع النبي ﷺ وأصحابه. فقلت: ليس شيء من هذا، يرحمك الله إلا وأنا أرى الحظ لنفسي فيه ^(٢).



(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤٤١).

(٢) المصدر السابق (١٢ / ٤٤٥).

من أسرار عظمته عبادته وخشوعه

عبادته

ولأن التقرب إلى الله بأنواع العبادات فرائضها ونوافلها هو الطريق الموصلة إلى ولاية الله فقد كان رَحْمَةُ اللَّهِ على قدر عال من الإقبال على التعبد والتهجد وتلاوة كتاب الله سيما في شهر القرآن، فإنه كان في أول ليلة من شهر رمضان يجتمع إليه أصحابه فيصلي بهم، فيقرأ في كل ركعة عشرين آيةً، وكذلك إلى أن يختم القرآن، وكذلك يقرأ في السحر، ما بين النصف إلى الثلث من القرآن، فيختم عند السحر، في كل ثلاث ليال، وكان يختم بالنهار كل يوم ختمةً، ويكون خُتمه عند الإفطار كل ليلة، ويقول: عند كل ختمة دعوة مستجابة^(١).

خشوعه بين يدي ربه

من صفات المؤمنين التي صدر بها رب العالمين سورة المؤمنون: أنهم في صلاتهم خاشعون، وقد كان المحدثون يعتبرون الخشوع في الصلاة من (١) تاريخ بغداد (٢ / ١٢)، طبقات الحنابلة (٢ / ٢٧٥)، تاريخ دمشق (٤٨) تهذيب الكمال (٤٤ / ٢٦)، سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٤٩: ٦٣٨)، طبقات الشافعية للسبكي شعيب الإيمان للبيهقي سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤٣٩).

شروط أخذ الحديث عن الراوي كما كان يفعل ذلك الإمام مالك حيث كان ينظر في صلاة الرجل؛ فإن رآه يحسن صلاته أخذ عنه الحديث وإلا لم يأخذ عنه.

وقد كان الإمام البخاري سيد الخاشعين في وقوفه بين يدي رب العالمين حتى ولو تعرض لألم شديد، ذكر وراقه مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَلَسَعَهُ الزُّنْبُورُ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً. فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ، قَالَ: انْظُرُوا أَيُّشَ آذَانِي.

وَقَالَ: «دُعِيَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ إِلَى بُسْتَانٍ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا صَلَّى بِالْقَوْمِ الظُّهْرِ، قَامَ يَتَطَوَّعُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، رَفَعَ ذِيلَ قَمِيصِهِ، فَقَالَ لِبَعْضِ مَنْ مَعَهُ: انْظُرْ هَلْ تَرَى تَحْتَ قَمِيصِي شَيْئًا؟ فَإِذَا زَنْبُورٌ قَدْ أَبْرَهُ فِي سِتَّةِ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ مَوْضِعًا، وَقَدْ تَوَرَّمَ مِنْ ذَلِكَ جَسَدُهُ.

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ: كَيْفَ لَمْ تَخْرُجْ مِنَ الصَّلَاةِ أَوَّلَ مَا أَبْرَكَ؟

قَالَ: كُنْتُ فِي سُورَةٍ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُتِمَّهَا»^(١) !!

ولا تتعجب من هذا فقد كان قدوته في ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، فكانوا يعظمون هذه الصلاة أيما تعظيم، ولا يتحركون فيها مهما أصابهم من أذى، حتى ولو اختلجت الأسمم في أجسادهم، فهذا عباد بن بشر قدوة البخاري أصابته الأسمم الأعداء وما أراد قطع الصلاة حتى ولو خرجت روحه لكن خشي على جيش رسول الله ﷺ ففي الحديث عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ مِنْ نَحْلِ، فَأَصَابَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ امْرَأَةً رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَافِلًا، أَتَى زَوْجَهَا وَكَانَ غَائِبًا، فَلَمَّا أُخْبِرَ الْخَبَرَ حَلَفَ لَا يَتَّهِي حَتَّى يُهْرِيقَ فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ دَمًا، فَخَرَجَ يَتَّبِعُ أَثَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْزِلًا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَكْلُونَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ؟» فَانْتَدَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَا: نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «فَكُونَا بِفَمِ الشَّعْبِ» قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ قَدْ نَزَلُوا إِلَى الشَّعْبِ مِنَ الْوَادِي، فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ الرَّجُلَانِ إِلَى فَمِ الشَّعْبِ، قَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْمُهَاجِرِيِّ: أَيُّ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أَكْفِيكَهُ أَوَّلُهُ أَوْ آخِرُهُ؟ قَالَ: بَلِ اكْفِنِي أَوَّلُهُ قَالَ: فَاضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ فَنَامَ، وَقَامَ الْأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي قَالَ: وَآتَى زَوْجَ الْمَرْأَةِ، فَلَمَّا رَأَى

شَخْصَ الرَّجُلِ عَرَفَ أَنَّهُ رَيْبُهُ الْقَوْمَ، قَالَ: فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ، قَالَ: فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَثَبَتْ قَائِمًا يُصَلِّي، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ فَوَضَعَهُ فِيهِ، قَالَ: فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَثَبَتْ قَائِمًا يُصَلِّي، ثُمَّ عَادَ لَهُ الثَّالِثَةَ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ، ثُمَّ أَهَبَّ صَاحِبُهُ، فَقَالَ: اجْلِسْ فَقَدْ أُثْبِتَ فَوْثَبَ، فَلَمَّا رَأَاهَا الرَّجُلُ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ نَذِرَ بِهِ فَهَرَبَ، فَلَمَّا رَأَى الْمُهَاجِرِيَّ مَا بِالْأَنْصَارِيِّ مِنَ الدَّمَاءِ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! أَفَلَا أَهْبَيْتَنِي أَوَّلَ مَا رَمَاكَ؟ قَالَ: كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرُؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أَنْفِذَهَا، فَلَمَّا تَابَعَ عَلَيَّ الرَّمِيَّ رَكَعْتُ فَادْنَيْتُكَ، وَآيَمُ اللَّهُ لَوْلَا أَنْ أُضِيعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِهِ لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أَنْفِذَهَا»^(١).

مستجاب الدعوة:

من المنازل العظيمة الجليلة التي قد يصلها العبد بعد أن تتوفر فيه صفات حميدة استجابة الله لدعائه وهي من دلائل حب الله لعبده ففي الحديث: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (١ / ٧٧) برقم: (١٩٨)، وأحمد في «مسنده» (٦ / ٣١٠٥) برقم: (١٤٩٣٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٣ / ٣٧٥) برقم: (١٠٩٦)، والحاكم في «مستدركه» (١ / ١٥٦) برقم: (٥٥٩)، وقال: حديث صحيح الإسناد، وصححه العيني في عمدة القاري (٣ / ٧٤).

إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ،
فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي
يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي
لَأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ
الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» ^(١).

وفي الحديث: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بُرَّةَ» ^(٢).

وهذه المنزلة لا يصلها إلا القليل من العباد، وذلك لما تتطلبه من مجاهدة
النفس، ومصابرتها على الدوام على الطاعة، والإقبال عليها برغبة ورهبة،
وخوف وطمع.

وقد كان الإمام البخاري من هؤلاء القلائل الذي بلغوا هذه المنزلة،
وقد نقل لنا وراقه محمد كلامًا جليلاً فقال: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: مَا
يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ بِحَالَةٍ إِذَا دَعَا لَمْ يُسْتَجَبْ لَهُ.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٨ / ١٠٥) برقم: (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنهُ.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨ / ٣٦) برقم: (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللَّهُ عَنهُ.

فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ أَخِيهِ بِحَضْرَتِي: فَهَلْ تَبَيَّنَتْ ذَلِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ مِنْ نَفْسِكَ؛
أَوْ جَرَّبْتَ؟

قَالَ: نَعَمْ، دَعَوْتُ رَبِّي عَزَّجَلَّ مَرَّتَيْنِ، فَاسْتَجَابَ لِي، فَلَنْ أُحِبَّ أَنْ أَدْعُوَ
بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَعَلَّهُ يَنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِي، أَوْ يُعَجِّلَ لِي فِي الدُّنْيَا.
ثُمَّ قَالَ: مَا حَاجَةُ الْمُسْلِمِ إِلَى الْكَذِبِ وَالْبُخْلِ؟! ^(١)

وأما المرة الثالثة التي دعا بها وهي عندما طلب لقاء الله بسبب ما حصل
له من حسد الحاسدين وكيد الكائدين، كما سيأتي في وفاته.



(١) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٤٨).

من أسرار عظمتة

ثناء الأمة عليه

وبعد هذا التطواف في رياض أسرار عظمة إمام الدنيا في زمانه نحط رحالنا عند شهداء الله في الأرض، فننظر ما هي منزلته عندهم؟ وما هي شهادتهم له؟ فالناس الصالحون شهداء الله في أرضه فقد ورد في الصحيح: «مُرُّوا بِجِنَازَةٍ، فَأَتْنُوا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَجَبَتْ». ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَتْنُوا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: «وَجَبَتْ». فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: «هَذَا أَتْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَتْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(١).

ومن عاجل بشري المؤمن في هذه الحياة وضع القبول له في الأرض في حياته، وهذا من كرم الله لأوليائه، كما في حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢ / ٩٧) برقم: (١٣٦٧)، ومسلم في صحيحه (٣ / ٥٣)، برقم (٩٤٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨ / ٤٤) برقم: (٢٦٤٢) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد نال الإمام البخاري القبول المنقطع النظر الذي لا يصل إليه إلا القلة من الناس، وسأسوق لك في هذه العجالة بعض كلمات شيوخه وأقرانه وتلاميذه ومن جاء بعدهم التي تبين مكانة هذا الإمام الكبير.

واعلم أن وصف البخاري، رَحِمَهُ اللَّهُ، بارتفاع المحل والتقدم في هذا العلم على الأماثل والأقران، متفق عليه فيما تأخر وتقدم من الأزمان، ويكفي في فضله أن معظم من أثنى عليه ونشر مناقبه شيوخه الأعلام المبرزون، والخذّاق المتقنون، وإليك قطرة من بحر ثنائهم، وشهادتهم... ولنبدأ بشيوخه، ومن أعظم شيوخه إمام الدنيا في العلل الحجة الثبت علي بن المديني فقد ذكروا له قَوْلَ الْبُخَارِيِّ لِعَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ -يَعْنِي: مَا اسْتَصْغَرْتُ نَفْسِي إِلَّا بَيْنَ يَدَيِ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ- فَقَالَ عَلِيٌّ: دَعُوا هَذَا، فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ لَمْ يَرِ مِثْلَ نَفْسِهِ»^(١).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٢٠).

ونشي بالإمام الحافظ محمد بن بشار^(١) الملقب ببُندار^(٢) وكان يُحبُّ البخاري ويُقدِّره ويفتخر به.

ومن المواقف العجيبة له ما يذكره الإمام البخاري بقوله: لَمَّا دَخَلْتُ
البَصْرَةَ صِرْتُ إِلَى مَجْلِسِ بُنْدَارٍ، فَلَمَّا وَقَعَ بَصْرُهُ عَلَيَّ، قَالَ: مِنْ أَيْنَ الْفَتَى؟
قُلْتُ: مِنْ أَهْلِ بَخَارَى.

فَقَالَ لِي: كَيْفَ تَرَكْتَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟

فَأَمْسَكْتُ، فَقَالُوا لَهُ: يَرْحُمُكَ اللَّهُ هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، فَقَامَ، وَأَخَذَ بِيَدِي،
وَعَانَقَنِي، وَقَالَ: مَرَحَبًا بِمَنْ أَفْتَحَرُ بِهِ مُنْذُ سِنِينَ^(٣).

وأما إمام أهل السنة المجلد الإمام أحمد فقد قال عنه: «مَا أَخْرَجْتُ
خَرَّاسَانُ مِثْلَ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ»^(٤). وقال كذلك: «انْتَهَى الْحِفْظُ إِلَى

(١) هو محمد بن بشار بن عثمان العبدي أبو بكر البصري، كان عالماً بحديث البصرة متقناً مجوداً، وكان إمام أهل زمانه في العلم والأخبار توفي سنة (٢٥٢هـ). ينظر: طبقات الحفاظ للذهبي (٧٢/٢) طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٢٢٦).

(٢) والبندار الحافظ وقد لقب به؛ لأنه كان حافظ الحديث في عصره ببلده.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢١).

أَرْبَعَةٍ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ: أَبِي زُرْعَةَ الرَّازِيَّ، وَمُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّمَرْقَنْدِيِّ، وَالْحَسَنَ بْنَ شُجَاعِ الْبَلْخِيِّ^(١).

بل كانوا يرون أنه لو كان في الصحابة لكان له منزلة عظيمه يقول شيخه قتيبة بن سعيد^(٢): «لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِي الصَّحَابَةِ لَكَانَ آيَةً»^(٣).

وقد سئل قتيبة بن سعيد عن البخاري فنكس رأسه، ثم رفعه إلى السماء، فقال: يَا هَؤُلَاءِ، نَظَرْتُ فِي الْحَدِيثِ، وَنَظَرْتُ فِي الرَّأْيِ، وَجَالَسْتُ الْفُقَهَاءَ وَالزُّهَادَ وَالْعُبَادَ، مَا رَأَيْتُ مِنْذُ عَقَلْتُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ بْنِ إِسْمَاعِيلَ^(٤).

فهذه بعض أقوال شيوخه، وأما أقرانه فقد كانوا يجلونه ويعظمونه أعظم إجلال وتقدير، فهذا مسلم صاحب الصحيح يقول وقد رأى الإمام البخاري: دعني أقبل رجلك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٢٣).

(٢) هو قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف الثقفي مولا هم شيخ الإسلام، المحدث، الإمام، الثقة الجوال، راوية الإسلام أبو رجاء وتوفي سنة (٢٤٠ هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء (٩/ ٨٦) طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ١٩٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣١).

(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٤٣١).

الحديث في عِلِّهِ^(١). وقال كذلك لما دخل عليه يسأله عن علة حديث من الأحاديث كما روى ذلك أَبُو حَامِدٍ أَحْمَدُ بْنُ حَمْدُونِ الْقَصَّارُ قَالَ: سَمِعْتُ مُسْلِمَ بْنَ الْحَجَّاجِ، وَجَاءَ إِلَى الْبُخَارِيِّ، فَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: «دَعْنِي أُقْبِلُ رَجُلِكَ».

ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَكَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ الْحَرَّانِيُّ، أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ عَنْ سُهَيْلٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَفَّارَةِ الْمَجْلِسِ، فَمَا عَلَّتُهُ؟».

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ: «هَذَا حَدِيثٌ مَلِيحٌ، وَلَا أَعْلَمُ بِهَذَا الْإِسْنَادِ فِي الدُّنْيَا حَدِيثًا غَيْرَ هَذَا الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ فِي هَذَا الْبَابِ، إِلَّا أَنَّهُ مَعْلُولٌ حَدَّثَنَا بِهِ مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ، حَدَّثَنَا سُهَيْلٌ، عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَوْلُهُ، قَالَ مُحَمَّدٌ: وَهَذَا أَوْلَى، فَإِنَّهُ لَا يُذَكِّرُ لِمُوسَى بْنِ عُقْبَةَ سَمَاعٌ مِنْ سُهَيْلٍ. فَقَالَ لَهُ مُسْلِمٌ: «لَا يُبْغِضُكَ إِلَّا حَاسِدٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِثْلُكَ»^(٢).

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (١٩/٢٤٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٣٦).

وهذه شهادة محمود بن النضر أبي سهل أنه كان المقدم في جميع ديار الإسلام فيقول: دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة، ورأيت علماءها، كُلِّمَا جَرَى ذِكْرُ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ فَضَّلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ^(١).

بل قد بلغوا من معرفة قدر الإمام البخاري وحاجة الأمة له أنهم كانوا يتمنون أن يعطوه من أعمارهم لما رأوا له من الفضل والعلم، يقول أَبُو جَعْفَرٍ: سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ جَعْفَرٍ يَقُولُ: «لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَزِيدَ فِي عُمْرِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ عُمْرِي لَفَعَلْتُ، فَإِنْ مَوْتِي يَكُونُ مَوْتَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَمَوْتُهُ ذَهَابُ الْعِلْمِ» ^(٢).

فإذا كان هذا موقف وثناء شيوخه وأقرانه فماذا سيقول تلاميذه، فهذا إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة صاحب صحيح ابن خزيمة يقول: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحفظ له من محمد بن إسماعيل ^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٢٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٢٢).

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤٣١).

وأما أبو عيسى الترمذي صاحب جامع الترمذي فيقول: «كان محمدُ ابنُ إسماعيل عند عبد الله بن منير وهو من كبار الزهاد والعباد، فلما قام من عنده قال له ابن منير: يا أبا عبد الله، جعلك الله زين هذه الأمة. قال الترمذي: استجيب له فيه ^(١) .

والكلمة الجامعة الخاتمة لمن؟! لختام المحدثين الذي عاش مع صحيح البخاري عشرين سنة الحافظ ابن حجر يقول - بعد أن نقل جملة من ثناء العلماء عليه-: «ولو فتحت باب ثناء الأئمة عليه ممن تأخر عن عصره لفني القرطاس ونفدت الأنفاس فذاك بحر لا ساحل له...» ^(٢) .

وقال النووي بعد أن ذكر شيئاً من ترجمة البخاري: «ومناقبه لا تُستقصى؛ لخروجها عن أن تحصى، وهي منقسمة إلى حفظ، ودراية، واجتهاد في التحصيل، ورواية، ونسك، وإفادة، وورع، وزهادة، وتحقيق، وإتقان، وتمكّن، وعرفان، وأحوال، وكرامات، وغيرها من أنواع المكرمات، ويوضح ذلك ما أشرت إليه من أقوال أعلام المسلمين أولي الفضل والورع والدين، والحفاظ والنقاد المتقنين، الذين لا يجازفون في العبارات، بل

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢ / ٤٣٣).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١ / ٤٨٥) ط: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

أسرار عظمة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ

يتأملونها ويحجرونها، ويحافظون على صيانتها أشد المحافظات، وأقاويلهم بنحو ما ذكرته غير منحصرة»^(١).

وقال الحافظ الذهبي: «قد أفردتُ مناقب هذا الإمام في جزء ضخم فيها العجب»^(٢).



(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٧٦).

(٢) تذكرة الحفاظ (٢/ ١٠٥).

مكانة الإمام البخاري

ومحبته في قلوب المسلمين

وبعد هذا التجوال في صفحات سيرة إمام الأئمة البخاري فندلف الآن إلى عرض مكانته في قلوب عامة المسلمين، وعظيم قدره عندهم، فقد كان كلما حل مدينة أو نزل أرضاً ازدحم حوله المسلمون ازدحاماً يفوق الوصف والبيان .

وكان الناس بعد ما سمعوا تلك الأوصاف الخارقة التي وهبها الله لهذا الإمام الجليل من فقه عديم النظير، وذاكرة خارقة، وتبحر في العلم؛ كانوا يتمنون رؤيته، فإذا نزل مكاناً تجمعوا حوله بحيث لا يكاد يوجد موضع قدم.

يقول أحمد بن منصور الشيرازي: لما رجع أبو عبد الله البخاري إلى بخارى من رحلاته نصبت له قباب على فرسخ البلد، واستقبله عامة أهل البلد، حتى لم يبق مذكور، ونثر عليه الدراهم والدنانير.

أما أهل نيسابور فيقول الإمام مسلم: لما قدم البخاري نيسابور ما رأيت والياً ولا عالماً فعل به أهل نيسابور ما فعلوا به، استقبلوه من مرحلتين

وثلاث، وخرج أربعة آلاف رجل ركباً على الخيل، سوى من ركب بغلاً أو حماراً، وسوى الرجال^(١).

وأما أهل البصرة فيقول حاشد بن إسماعيل: «كَانَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْبَصْرَةِ يَعْدُونَ خَلْفَ الْبُخَارِيِّ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ، وَهُوَ شَابٌّ حَتَّى يَغْلِبُوهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيُجْلِسُوهُ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَلُوفٌ أَكْثَرُهُمْ مِمَّنْ يَكْتُبُ عَنْهُ».

قالا: وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ شَابًّا لَمْ يُخْرِجْ وَجْهَهُ^(٢).

فها هم شهداء الله في الأرض قد أثنوا خيراً على إمام الدنيا، وحافظها، وأميرها في زمانه.

فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْ مَلَأَ اللَّهُ أُذُنِيهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ خَيْرًا وَهُوَ يَسْمَعُ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنْ مَلَأَ اللَّهُ أُذُنِيهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ شَرًّا وَهُوَ يَسْمَعُ»^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٥٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٥ / ٣٠٤) برقم: (٤٢٢٤)، والبخاري في «مسنده» (١١ / ٣٣٩) برقم: (٥١٥٥)، والطبراني في «الكبير» (١٢ / ١٧٠) برقم: (١٢٧٨٧)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٤ / ٢٤٣).

عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ
بِالنَّبَاةِ - أَوْ بِالنَّبَاوَةِ، شَكَّ نَافِعٌ - مِنَ الطَّائِفِ، وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ،
إِنَّكُمْ تُوشِكُونَ أَنْ تَعْرِفُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ - أَوْ قَالَ: خِيَارَكُمْ مِنْ
شَرَارِكُمْ - قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بِالثَّنَاءِ السَّيِّئِ،
وَالثَّنَاءِ الْحَسَنِ، وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ بِعُضُكُمُ عَلَى بَعْضٍ» ^(١).

وأما أنتم أيها الطاعنون في سنة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والشانئون لرواة
حديثه، لقد خضتم لجح الهلاك، وركبتم مركب السوء، وعرضتم أنفسكم
لسخط شهداء السماء والأرض حين صرتم حطباً لأهوائكم وشهواتكم،
فما هو موقفكم غدا حين يشهد عليكم الخلق بعداوتكم للرحمة المهداة،
والنعمة المسداة، فيا لندامتكم يوم لا ينفع الندم، ويا لحسرتكم يوم الحسرة.



(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٣٠٢ / ٥) برقم: (٤٢٢١)، وأحمد في «مسنده»
(٣٢٦٨ / ٦) برقم: (١٥٦٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٩٢ / ١٦) برقم:
(٧٣٨٤)، والحاكم في «مستدركه» (١٢٠ / ١) برقم: (٤١٢)، قال الحاكم: هذا حديث
صحيح الإسناد. وحسنه ابن حجر في الإصابة (٧٧ / ٤).

من أسرار عظمة صحيح البخاري

كما تبوأ الإمام البخاري تلك المنزلة العظيمة الجليلة فكذلك صحيحه الكتاب الذي نال قصب السبق، والقدح المعلى، وتلقته الأمة بالقبول، ونهل منه العلماء، وأقبل عليه المحققون، وغدا ذكره عند الخاص والعام، والحاضر والباد، ولم ينل كتاب من كتب الحديث ما ناله من الشرح لأحاديثه، وبيان غريبه، ودراسة ترتيبه وتبويبه، وأسانيده ومتونه، واستخراج درر استنباطاته، ودقائق فهمه.

والسؤال الذي يفرض نفسه: ما الأسرار التي أدت إلى بلوغ هذا الكتاب هذه المنزلة؟!

حتى غدا عوام المسلمين إذا أخطأ الرجل فيهم فلام الناس عليه وأكثروا من اللوم يقول: « وهل أخطأت في البخاري »!!

وكان الخطأ في صحيح البخاري خطأ غير مغفور عند المسلمين وكان الذنب مهما عظم لا يساوي عند الناس الخطأ في حق صحيح محمد بن إسماعيل رَحْمَةُ اللَّهِ.

إنها أسرار عظيمة تجلي لنا أن ذلك إنما كان بعد توفيق الله أولاً وآخرًا
بأسباب، كل من أخذ بها علا وارتفع، ودونك هذه الأسرار:

السر الأول- الإخلاص

وهو سر الأسرار، وسبب الأسباب، وبه يحصل الثبات في الحياة وعند
الممات، وبه تتفاوت أعمال العباد في الدرجات كما بين الأرض والسموات،
فكل ما كان عملك خالصًا صافيًا لربك سبحانه، لا تريد أيَّ مقصد من
مقاصد الدنيا، بقي لك الذكر الحسن، وحفظ الله لك أعمالك، ونشرها بين
العباد إلى قيام الساعة.

ومن الكلمات الخالدة التي سطرها لنا علماء الإسلام، وتكتب بماء
الذهب بل بماء العيون: «ما كان لله بقي»، هذه الكلمة التي أطلقها مدوية
الإمام مالك عندما حصل في زمانه تنافس بين العلماء في تأليف الموطآت،
وخاف تلاميذ الإمام مالك على كتابه الموطأ أن لا يكون له حضور بين
المصنفات، وأن يُنسى مع وجود كثير من الموطآت التي هي أكبر منه،
فقال تلك الكلمة الخالدة: «ما كان لله بقي» فنسيت جميع تلك الموطآت ولم
تشتهر، وبقي موطأه شاخًا إلى يومنا هذا.

وسار الإمام البخاري على سيرة من سبقه في تحرّيه طلب الإخلاص،
وسن سنة حسنة لكل من أراد أن يؤلف كتاباً حيث جعل أول حديث كتابه
قول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى،
فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا
هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١)، وذكر هذا الحديث في باب بدء الوحي مع أنه لا علاقة له بهذا
الباب من حيث الموضوع؛ ولكن أراد الإمام البخاري بذكره لهذا الحديث
أن يُذكّر نفسه بالمقصود الأسمى، والهدف الأعلى، وهو الإخلاص لله
عَزَّوَجَلَّ.

وهذا الحديث الذي يبعث على استحضار النية الصالحة والإخلاص
لله من الأحاديث التي كان العلماء يعقدون العزم على أنهم إذا صنفوا كتاباً
صدروه بهذا الحديث، يقول الحافظ الإمام الهمام الثقة الثبت عبد الرحمن بن
مهدي^(٢): «لو صنفت كتاباً في الأبواب لجعلت حديث عمر بن الخطاب في

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١ / ٦) برقم: (١).

(٢) ثقة ثبت حافظ عارف بالرجال والحديث، قال ابن المديني: ما رأيت أعلم منه. قال
الشافعي: لا أعرف له نظيراً في الدنيا. ذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال: كان من الحفاظ
المتقنين، وأهل الورع في الدين، ممن حفظ وجمع، وتفقه وصنف، وحدث، وأبى الرواية
إلا عن الثقات، توفي سنة ١٩٨ هـ. ينظر: الثقات لابن حبان (٨ / ٣٧٣)، سير أعلام
النبلاء (٩ / ١٩٢).

الأعمال بالنيات في كل باب»^(١)، فلعل البخاري عمل بهذه الوصية الزكية التقية النقية.

وهذه السنة سار عليها عالم همام أبقى الله لكتابه من الانتشار والقبول ما لم يحصل إلا لقليل من العلماء، حتى قال الذهبي: «ليتني أعلم ما فعل فلان مع الله حتى كانت له هذه المكانة والقبول».

إنه - يا كرام - الحافظ النووي رَحْمَةُ اللَّهِ الذي ما عاش إلا خمسا وأربعين سنة، هذا الحافظ سار سيرة الإمام البخاري، فصدر بذلك الحديث كتابين من كتبه التي انتشرت في مشارق الأرض ومغاربها، ولا تكاد تجد مسجداً ولا بيتاً إلا وفيه هذان الكتابان، وقد حاز كتابه الأربعين النووية أكثر الكتب مبيعاً، وليس في العالم الإسلامي فحسب، بل حتى في فرنسا كما ذكرت ذلك مجلة (جون أفريك).

هل كان النووي يظن أن يكون له حسنات في شوارع باريس، إنه الإخلاص لله فيما نحسب، والله حسيبه .. رحم الله علماء الإسلام.

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٦١).

السر الثاني- التبرك بالأمكنة والأزمنة المرضية عند رب البرية في نجاح عمله

وهذه قضية أساسية في نجاح الأعمال وذلك بطلب الأماكن، والأزمان التي يحبها الله تعالى ويفضلها على غيرها، فيقيم فيها ذلك العمل رجاء توفيق الله له؛ لأن كل عمل لا يستحضر فيه العبد طلب توفيق رب العزة والجلال فهو عمل لا يحالفه السداد والنجاح الكبير، وقد طلب الإمام البخاري جملة من الوسائل التي تدل على تعلق قلبه بطلب رضا ربه في قبوله عمله، وذلك في ما يلي:

الأمر الأول- في اختيار مكان تبيض أحاديث الكتاب وتراجمه، فأما الأحاديث فكان تبيضها في المسجد الحرام، قال عمر بن محمد بن بجير البجيري: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: «صنفت كتابي الجامع في المسجد الحرام»^(١).

وأما تراجع الأبواب فقد بيضها في المسجد النبوي، قال أبو أحمد بن عدي عن عبد القدوس بن همام قال: «شهدت عدة مشايخ يقولون: حول

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ٤٨٩).

البخاري تراجم جامعه - يعني بيضها - في الروضة الشريفة، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين^(١).

الأمر الثاني - الالتجاء إلى الله بالاستعانة بالصلاة والاستخارة في وضع الحديث في جامعه يقول: «قَالَ الْفَرَبْرِيُّ: قَالَ لِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ: «مَا وَضَعْتُ فِي كِتَابِي (الصَّحِيحِ) حَدِيثًا إِلَّا أَغْتَسَلْتُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَصَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ»^(٢).

الأمر الثالث - استشعار أنه يتعامل مع الله، ولذلك قال عن مشروعه: «صنفت الجامع من ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة، وَجَعَلْتُهُ حُجَّةً فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى»^(٣)، فقضيته ليست تأليفاً لتجارة ولا لنيل شهادة أو ترقية، أو وجاهة وشهرة، وإنما نحسبه والله حسيبه كان قصده ابتغاء وجه الله.

(١) المصدر السابق (ص: ١٣)، سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٠٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٠٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٠٥).

السر الثالث - التميز

من أركان التميز في العمل أن لا يكون في الباب غيره، مع وجود الحاجة الملحة له، وهذا مما تميز به سلف الأمة أنهم كانوا لا يؤلفون في الغالب إلا إذا وجدوا حاجة لذلك العمل أو التأليف، فلم يكونوا يؤلفون من أجل المتاجرة بتلك الكتب، حاشاهم، وهذا مما تميز به صحيح البخاري فقد كانت الكتب التي ألفت قبله لم تشترط الصحة في تأليفها، وكذلك لم تقتصر على سنة خير المرسلين، بل كانت تشتمل على الأحاديث والآثار التي فيها ضعف.

والتميزون المبدعون من أبرز صفاتهم اقتناص الفرص، وتحويلها إلى مشاريع جادة، وهذا حال أمير المؤمنين في الحديث، وشيخ المبدعين والتميزين، وهو ما عرف به، فقد قال عند تأليف كتابه التاريخ: «لَوْ نُشِرَ بَعْضُ أُسْتَاذِي^(١) هُوَ لَا يُمْيَهُمُوا كَيْفَ صَنَّفْتُ (التَّارِيخَ)، وَلَا عَرَفُوهُ، ثُمَّ قَالَ: صَنَّفْتُهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٢)».

(١) تصحفت في «تاريخ بغداد» (٢ / ٧)، وطبقات السبكي (٢ / ٢٢١) إلى «إسنادي».

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٠٣).

وقال أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ: «أَخَذَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهَ كِتَابَ (التَّارِيخِ) الَّذِي صَنَّفْتُ، فَأَدْخَلَهُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، أَلَا أُرِيكَ سِحْرًا؟ قَالَ: فَنَظَرْتُ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ، فَتَعَجَّبَ مِنْهُ، وَقَالَ: «لَسْتُ أَفْهَمُ تَصْنِيفَهُ»^(١).

ولذلك عندما سمع البخاري من شيخه الإمام الحافظ صاحب المسند إسحاق بن راهويه أنه قال: «لَوْ جَمَعْتُمْ كِتَابًا مَخْتَصِرًا لِسُنَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي قَلْبِي، فَأَخَذْتُ فِي جَمْعِ هَذَا الْكِتَابِ»^(٢)، فأخذها هذا الأملعي والجهبذ، وعقد العزم، وشمر عن ساعد الجد؛ لكي يجمع كتابًا يشتمل على الصحيح من أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم جاء تأييد السماء، وجاءته مبشرات النبوة، وهو أنه رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام وهو واقف بين يديه، ويده مروحة يذب بها عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسأل أحد المعبرين عن ذلك فقال له: أنت تذب وتبعد الكذب عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٠٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤٠١).

وقال أبو زيد المروزي الفقيه يقول: «كُنْتُ نَائِمًا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِي: «يَا أَبَا زَيْدٍ، إِلَى مَتَى تَدْرُسُ كِتَابَ الشَّافِعِيِّ، وَلَا تَدْرُسُ كِتَابِي؟»

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا كِتَابُكَ؟

قَالَ: «(جَامِعُ) مُحَمَّدٍ بْنِ إِسْمَاعِيلَ»^(١).

قال الحافظ: «فلما رأى البخاري رَحْمَةُ اللَّهِ هذه التصانيف ورواها، وانتشق رياها، واستجلى محياها، وجدها بحسب الوضع جامعة بين ما يدخل تحت التصحيح والتحسين، والكثير منها يشمل التضعيف، فلا يقال لغته: سمين. فحرك همته لجمع الحديث الصحيح الذي لا يرتاب فيه أمين، وقوي عزمه على ذلك ما سمعه من أستاذه أمير المؤمنين في الحديث والفقه إسحاق بن إبراهيم الحنظلي»^(٢).

(١) (١٢ / ٤٣٨).

(٢) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ٦).

السر الرابع - الإبداع:

لكل عمل عظيم إبداعات تدل على عظمته، وقد أبدع الإمام البخاري في جوانب عدة، ومن تلك الجوانب:

أولاً - تراجم أبوابه التي حيرت الأفكار، وأدهشت العقول والابصار.

ومع ما اشتمل عليه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ من الحفظ الغزير، وما يعجز عنه الواصف من معرفة الفن القاضي بأنه ليس له فيه نظير، فكتابه يشهد له بالتقدم أيضًا في استنباط المسائل الدقيقة، وإزاحات الإشكالات بالكلمات اليسيرة الأنيقة؛ كقوله: باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُعَذَّبُ الْمَيِّتُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» ^(١) «إِذَا كَانَ النَّوْحُ مِنْ سُنَّتِهِ» ^(٢).

كُلُّ هذا مع الاطلاع على اللغة والتوسع فيها، وإتقان العربية والصرف إيضاحًا وتنبهًا، وَمَنْ تَأَمَّلَ اختياراته الفقهية في «جامعه»؛ عَلِمَ أَنَّهُ كَانَ مجتهدًا موقفًا مسددًا، ثم رأى أن لا يخليه من الفوائد الفقهية والنكت الحكمية، فاستخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة، فرّقها في أبواب الكتاب

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الجنائز، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُعَذَّبُ الْمَيِّتُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ» إِذَا كَانَ النَّوْحُ مِنْ سُنَّتِهِ (٢ / ٧٩) برقم: (١٢٨٤).

(٢) صحيح البخاري (٢ / ٧٩).

بحسب تناسبها، واعتنى فيه بآيات الأحكام فانتزع منها الدلالات البديعة وسلك في الإشارة إلى تفسيرها السبل الوسيعة^(١).

ويقول الإمام القدوة أبو محمد بن أبي جمرة: «وكذلك الجهة العظمى الموجبة لتقديمه، وهي ما ضمنه أبوابه من التراجم التي حيرت الأفكار، وادهشت العقول والأبصار، وإنما بلغت هذه الرتبة، وفازت بهذه الخطوة؛ لسبب عظيم أوجب عظمها، وهو ما رواه أبو أحمد بن عدي عن عبد القدوس بن همام قال: «شهدت عدة مشايخ يقولون: حول البخاري تراجم جامع - يعني: بيضاها - بين قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنبره، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين»^(٢).

ثانيًا - إبداعه في تكرار وتقطيع الأحاديث.

قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي: «... والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ كان يذكر الحديث في كتابه في مواضع، ويستدل به في كل باب بإسناد آخر، ويستخرج منه بحسن استنباطه، وغزارة فقهه معنى يقتضيه الباب الذي

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ٨).

(٢) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ١٣).

أخرجه فيه، وقلما يورد حديثاً في موضعين بإسناد واحد ولفظ واحد، وإنما يورده من طريق أخرى لمعان^(١).

ثم ذكر جملة كبيرة من تلك المعاني الدقيقة والنكت البديعة التي تشهد على براعته، وإتقانه، وفطنته، ودقته، وإمامته.

السر الخامس - الإتقان

انطلق الإمام البخاري من قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»^(٢)، ففي هذا الحديث إشارة عظيمة إلى أن الأعمال التي تبقى وتستمر هي تلك الأعمال المتقنة التي يحبها الله، فالله جل في علاه إذا أحب شخصاً أو عملاً وضع له القبول في الأرض كما في الحديث: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(٣)، ومن هنا يجب علينا

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (١/ ١٥)، ط: دار المعرفة - بيروت، (١٣٧٩)

(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٧ / ٣٤٩) برقم: (٤٣٨٦)، والطبراني في «الأوسط» (١ / ٢٧٥) برقم: (٨٩٧)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (١٨٥٥)، والألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤ / ١١١) برقم: (٣٢٠٩) ومسلم في «صحيحه» (٨ / ٤٠) برقم: (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رَحِمَهُ اللهُ عَنهُ

أن نتقن في جميع أعمالنا، وكان للإمام البخاري الحظ الأوفر، والنصيب الأوفى من طلب معايير الإتقان والجودة ومنها:

أولاً- علو أسانيده، وهذه لا تتحقق إلا بكثرة السفر والتطواف، وقد سافر الإمام البخاري قرابة ثلاثين ألف كيلاً، كل ذلك لكي يصل إلى أعلى الأسانيد إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكلما علا الإسناد قل الخطأ، وقد تحقق له اثنا وعشرون حديثاً من الأحاديث الثلاثية العالية الإسناد، وهي التي بينه وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة رواة، قال العيني: «ويبلغ جميعها أكثر من عشرين حديثاً، وبه فضل البخاري على غيره»^(١).

ثانياً- اشترط في الرواة الذين يخرج لهم في صحيحه شروطاً دقيقة، بل عُدَّ البخاري من المتشددین في شروطه في الرجال، كلُّ ذلك من أجل طلب أعلى درجات الصحة، حتى قيل في الراوي الذي أخرج له البخاري: قد جاوز القنطرة في الغالب. قال البخاري: «ما أدخلت في هذا الكتاب إلا ما صح، وتركت من الصحاح كي لا يطول الكتاب»^(٢).

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢/ ١٥٣)، ثلاثيات الإمام البخاري، د. يوسف الكتاني، مجلة السنة النبوية، العدد الرابع، (ص: ٤٧٢).

(٢) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ٧).

ثالثاً- لم يكن جمع الصحيح في يوم أو يومين، أو شهر أو شهرين، بل ولا سنة ولا سنتين، وإنما استمر في جمع الصحيح ست عشر سنة، يتنقل من مدينة إلى مدينة، ومن شيخ إلى شيخ، كل ذلك يتحرى في الشيوخ، ويجمع الطرق والروايات، حتى قال البخاري: «أخرجت هذا الكتاب من زهاء ستمائة ألف حديث». وقال: «صنفت «الصحيح» في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى»^(١).

رابعاً- ومع كل هذه الأسباب المادية التي أخذ بها إلا أنه يعلم علماً يقينياً أن هذه الأسباب لا تغني شيئاً إذا لم يكن عناية الله وتوفيقه محيطان بالعبد، فمهما بلغ الإنسان من العلم والفهم والتدقيق فهو محتاج إلى ربه في كل لحظة وحين، ولذا ضرب الإمام البخاري أروع الصور في تعلقه بربه حيث يقول: «ما وضعت في كتابي «الصحيح» حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك، وصليت ركعتين».

خامساً- من المعايير المهمة في الإتقان: مراجعة العمل والنظر فيه عدة مرات، وهذا ما كان عليه الإمام البخاري، فكان لا يؤلف مؤلفاً إلا كتبه ثلاث مرات، قال محمد بن أبي حاتم: وسمعتة يقول: «صنفت جميع كتبي

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ٤٨٩).

ثلاث مرّات»، وهذا السبب الذي أدى إلى إطالة المدة، والذي يظهر أن صحيحه راجعه مرات ومرات؛ لأنه كان يرويّه ويسمعه كلما نزل مدينة.

سادساً- من معايير الجودة والإتقان: عرض العمل على المتخصصين في كل فن، وقد عرضه الإمام البخاري على جهابذة المحدثين وأئمة النقاد في زمانه قال أبو جعفر محمود بن عمرو العقيلي: «لما ألف البخاري كتاب الصحيح عرضه على أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلى بن المديني، وغيرهم، فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة، إلا في أربعة أحاديث، قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة»^(١).

سابعاً- روايته لآلاف المحدثين ونقاده في مشارق الأرض ومغاربها، ومع ذلك لم يعترض عليه في زمانه أحد منهم، وهذا إن دل فإنما يدل على أنه وصل بكتابه الكمال البشري لا سيما مع كثرة حساده.

ثامناً- بذل غاية الجهد في الوصول إلى أعلى درجة الإتقان وهو اليقين بجودة العمل، قال عمر بن محمد بن بجير البجيرى سمعت محمد بن

(١) هدى الساري مقدمة فتح الباري (ص: ٧).

أسرار عظمة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ

إسماعيل يقول: «صنفت كتابي الجامع...، وما أدخلت فيه حديثاً حتى
تيقنت صحته»^(١).



(١) المصدر السابق (ص: ٤٨٩).

ماذا يجب على الأمة

في نصرة الإمام البخاري وصحيحه؟

تبين مما سبق المنزلة الجليلة للإمام البخاري وصحيحه، وهذا البيان حجة علينا أجمعين بين يدي رب العالمين إذا لم نبذل وسعنا في الذب عن عرض البخاري، والذود عن صحيحه، حمايةً لدين الإسلام من مكر الليل والنهار الذي يكيد أعداء الإسلام لطمس معالم ديننا الحنيف وأصوله التي لم يتنازع فيها اثنان، وفي ما يلي رسائل فيها شرح لبعض الواجب تجاه هذا الإمام الجليل وصحيحه:

الرسالة الأولى - إلى حكام المسلمين: يجب على كل حاكم مسلم أن يغار ويغضب لكل من يتكلم في السنة النبوية أو يتكلم في نقلتها بالسوء، وأن يرمج ذلك الغضب بإجراءات صارمة رادعة كما يتخذ تلك الإجراءات إذا مست دولته أو شخصه.

الرسالة الثانية - لعلماء الأمة الذين حَمَلهم الله أمانة حفظ الدين، وتبليغه، ونصرته، والتضحية بكل غال ونفيس في الحفاظ عليه، فالواجب عليكم يا علماء الإسلام عظيم، والحمل ثقيل، والمسؤولية كبيرة، والقضية خطيرة،

ولعل أقل ما يقوم به الواجب أن تجتمعوا في هذه الأيام، وتصدروا وثيقة تبين حكم هؤلاء ومنزلتهم في الإسلام حتى نحافظ على عامة الأمة .

الرسالة الثالثة- لكم يا أهل الدثور أهل الأموال والفضل، فقد منَّ الله عليكم بهذا المال الذي هو مال الله وليس بملككم، فهو المعطي سبحانه والباسط والرازق، فالوجب عليكم أن تبذلوا وتخصصوا من أموالكم ما يفي بنصرة سنة خير المرسلين **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فإن نصرتها في هذا الزمان من أوجب الواجبات ومن أهم المهمات ومن أفضل من الجهاد في سبيل الله، فالله الله بالبذل والعطاء في هذا الباب العظيم، ودعم المشاريع التي قد نذرت نفسها لنصرة سنة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** حتى يتحقق المقصود بالتكامل بين الباذلين للعلم والباذلين للمال.

الرسالة الرابعة- إلى طلبة العلم المتخصصين في السنة النبوية، هذا سؤال أطره بين أيديكم، وآمل أن يجيب كل شخص بصدق وإخلاص ومصارحة مع نفسه: ماذا قدمت؟ ما براجمك؟ ما هي مشاريعك؟ ما هي مشاركتك في صد هذه الهجمة الشرسة على السنة وعلى صحيح البخاري

على وجه الخصوص؟ إنني أدعوك إلى أن تكون منارة في دعوة الناس إلى تعظيم السنة، ومنبرًا قويًا في الرد على شبه الطاعنين.

الرسالة الخامسة- إلى مثقفي الأمة ومبذعيها ومفكريها ومنشديها وشعرائها، جاهدوا بما وهبكم الله من مواهب وقدرات في سبيل نصره سنة حبيبكم ﷺ، وتعلموا أن المسؤولية عامة، وكل واحد منكم على ثغر، فاجعلوا من أقلامكم وأصواتكم رسالة تشاركون بها في توعية الجيل بأهمية التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

الرسالة السادسة- إلى عامة الأمة، هذه سنة نبيكم التي بها تسعدون وبها تنعمون، وبها تعرفون دينكم فتتبعون، فأقبلوا عليها تعلُّمًا وتفهُمًا، ودعوة وتعليمًا، وامتنالًا لأوامرها، واجتنابًا لنواهيها.

قائمة المراجع

١ - الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥هـ.

٢ - التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه، مؤلف الأصل: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُسْتِي (المتوفى: ٣٥٤هـ)

ترتيب: الأمير أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي الحنفي (المتوفى: ٧٣٩هـ)

مؤلف التعليقات الحسان: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

المصادر والمراجع

٣- الثقات، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُسْتِي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، الناشر: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة: الأولى، ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣.

٤- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري،: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر.

الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.

٥- الجامع لعلوم الإمام أحمد - العقيدة، أبو عبد الله أحمد بن حنبل، المؤلف: خالد الرباط، سيد عزت عيد، محمد أحمد عبد التواب [بمشاركة الباحثين بدار الفلاح]، الناشر: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم - جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٦- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، ت: د. محمود الطحان الناشر: مكتبة المعارف - الرياض.

٧- الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، ط: مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن - الهند.

٨- تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، ت: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

٩- المعلم بشيوخ البخاري ومسلم، أبو بكر محمد بن إسماعيل بن خلفون (المتوفى ٦٣٦ هـ)، ت: أبو عبد الرحمن عادل بن سعد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

١٠- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي (المتوفى: ٣٦٠ هـ)، ت: د. محمد عجاج الخطيب، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٤.

١١ - المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، ت: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦.

١٢ - المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٣ - الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، عام النشر: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٤ - أمهات مؤمنات غيرن وجه العالم، أحمد الجوهري عبد الجواد، دار المازري - تونس.

١٥ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، ت: عمر

عبد السلام التدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

١٦ - تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١ هـ)، ت: عمرو بن غرامة العمروي الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

١٧ - تحفة السامع والقاري في ختم صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر الجعفري الحنبلي، وانظر الحطة في ذكر الصحاح الستة، لصديق حسن خان، ط: دار الجيل، ت: علي حسن الحلبي.

١٨ - تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

١٩ - تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦ هـ)، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية.

٢٠- تفسير الطبري، محمد بن جرير ط: مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ، ت: أحمد شاكر.

٢١- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، ت: الدكتور محمد الأحمد أبو النور

الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

٢٢- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م.

٢٣- خريطة سامي المغلوث في كتابه أطلس الفرق والمذاهب في التاريخ الإسلامي.

٢٤- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري

الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة: الأولى، (المكتبة المعارف).

٢٥- سنن ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)

ت: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

٢٦- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السَّجِسْتَانِي (المتوفى: ٢٧٥هـ)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت

٢٧- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَورَة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) ت: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)

الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر

الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٢٨- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨ هـ)، ت: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

٢٩- ضعيف الجامع الصغير وزيادته، ت: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي.

٣٠- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١ هـ)، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ.

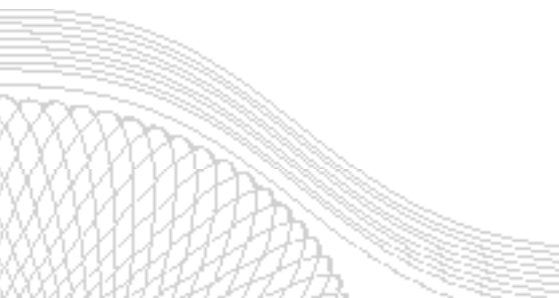
٣١- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ط: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

٣٢- مجلة السنة النبوية، العدد الرابع.

٣٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، ت: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٣٤- مناقب الإمام أحمد، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الناشر: دار هجر، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ١٤٠٩ هـ.

٣٥- هدى الساري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.



المحتويات

مقدمة..... ٥

ترجمة الإمام البخاري

أولاً - اسمه ومولده ونشأته:..... ٧

نشأته في حجر أمه: ١٥

ثانياً - مواقف وقصصٌ عجيبة في نبوغه وإتقانه: ١٩

ثالثاً - رحلاته: ٢٥

السُّرُّ الأول - الرحلة إلى أكثر بلاد الإسلام: ٢٧

السُّرُّ الثاني - تكرار رحلاته للمدينة الواحدة: ٣٢

صفات أهل الحديث وأحوالهم ٣٤

رابعاً - شيوخه وتلامذته وأسرار ذلك: ٣٦

- ٣٧ أما شيوخُ الإمام البخاري:
- ٣٨ السِّرُّ الأول - الاستقصاءُ في أخذ حديث المحدث:
- ٣٩ السِّرُّ الثاني - موسوعيته في أخذه عن الشيوخ:
- ٤٠ السر الثالث - فحصه لمن يأخذ عنه فحصاً دقيقاً:
- ٤٠ وأما تلاميذ الإمام البخاري:

من أسرار عظمة الإمام البخاري

٤٣ بذله وتضحيته

من أسرار عظمته

٥٤ صبره وحرصه على طلب الحديث

٦١ صبرهم حتى عند موتهم بتحديثهم بحديث رسول الله ﷺ ...

من أسرار عظمته

٦٤ حافظته الفولاذية

٧٨ فقه الإمام البخاري

أهل المعرفة يُقدّمون البخاريّ على شيخه إسحاق: ٨٠

من أسرار عظّمته

تركّيّة نفسه

كان لا يعمل عملاً إلا بنية: ٨١

بذله للعلم بدون مقابل: ٨٣

زهده في الرئاسة والشهرة: ٨٧

استواء المدح والذم من العامة: ٩٠

ورعه: ٩١

من قصص ورعه العجيبة: ٩٢

ورعه في تركه للبيع والشراء: ٩٤

ورعه من السخرية بالناس ولو بابتسامة: ٩٥

وأما ورعه في حفظ لسانه فكان آية من آيات الله: ٩٥

خشيتيه من الله أن لا يكون قال ما يراه حقاً: ٩٨

من أسرار عظمته

اهتمامه بجسده وصحته..... ١٠٠

من أسرار عظمته

كريم أخلاقه

سخاؤه وكرمه: ١٠٣

تواضعه في خدمة الدين: ١٠٤

عفوه وصفحه: ١٠٦

سماحته وطيب نفسه ١٠٨

رفقه ولطفه: ١٠٩

من أسرار عظمته

عبادته وخشوعه

عبادته..... ١١٠

خشوعه بين يدي ربه ١١٠

مستجاب الدعوة: ١١٣

من أسرار عظمته

ثناء الأمة عليه

مكانة الإمام البخاري ١٢٤

ومحبته في قلوب المسلمين ١٢٤

من أسرار عظمتة صحيح البخاري

السر الأول - الإخلاص ١٢٨

السر الثاني - التبرك بالأمكنة والأزمنة المرضية عند رب البرية في نجاح

عمله ١٣١

السر الثالث - التميز ١٣٣

السر الرابع - الإبداع: ١٣٦

السر الخامس - الإلتقان ١٣٨

ماذا يجب على الأمة في نصرة الإمام البخاري وصحيحه؟ ١٤٣

قائمة المراجع ١٤٦

تم بحمد الله